

غائب طعمة فرمان

آلام السيد معروف



مكتبة
الفكر
الجديد



غائب طعمة فرمان

رواية

آلام السيد معروف

للغروب فتنة لدى السيد معروف لا تعادلها فتنة أخرى في الدنيا كلها. كان إذا استقبله من ركنه المنزوي في المقهى المطل على النهر لم يعد يستهويه أي شيء آخر فيما حوله؛ لا الطيور التي كانت ترفُّ فوقه منقضة على صدر النهر، مصعدة في السماء الشفافة، حتى تغيب عن الدنيا، لأنه يعرف أن الطيور ستعود، في آخر الأمر، إلى وكناتها، ولا الغمام السابح كالقطن المنفوش لأنه سرعان ما يندمج في الأفق ويتبدد، ولا الطائرات التي كانت، أحياناً، تلوح من خلف صف النخيل في الجانب الآخر من النهر، وتحلق، وتصفّر، وتغيب عن العين، لأنه كان يعرف أنها ستحط في مطار من مطارات العالم الواسع.. أما هذا الغروب الساجي فيظل يطوي الأماد، ويعانق الأفق، ويظل يلزمها إلى ما لا نهاية، هارباً من ظلامية الليل التي كان السيد معروف يكرهها كرهاً شديداً، فيود لو يلاحقه إلى الأبد، معانقاً مثله الأفق، دون أن يشهد الليل الكئيب، أو الظلام المتوحش، فالعمر مع رحلة الغروب، يتمدد ساعات تعوض عن خسارة يوم قضاه بين أربعة جدران وراء آلة طباعة عتيقة منحوسة تسبب له آلاماً بالمفاصل، ومغصاً بالمعدة، وشوشة في الأذنين، وزغلة في العينين. شيء في الغروب شجي وبهيج وفاتن وعنود فيه سحر الديمومة، وفتنة الأزل ومطال الأجل، لا مثل الشروق الخاطف سرعان ما يسلم زمامه إلى شمس لاهية، وهواء وغر. والغروب بعد كل شيء، صار رمز حياته. حياة السيد معروف الأيلة إلى الغروب، حياته الشاحبة المتراجعة المتقلصة، المتراكضة، كالغروب نفسه، نحو هوة أفق غامض، دون أن يستطيع أن يمسك بها، أن يوقفها، ويتأمل فيها، كما لا يستطيع أن يوقف الغروب، ليتأمل فيه. وكان السيد معروف يدرك، في قرارة نفسه، أن من اليأس أن يتعشق المرء الغروب لا الشروق. لكنه يعود فيقول لنفسه: كيف يعشق المرء شيئاً لا يذكر أنه رآه، في مجده المروي والمحكي عنه، في أي يوم من أيام حياته. فقد كانت الشمس تنبع من وراء ألف جدار، في مدينته الملتفة على نفسها، كالشرنقة المتلاصقة الجدران، الضيقة الأزقة، المدينة المتراخية التي تربي فيها وقضى شبابه، ويقضي الآن كهولته العامرة بالإيمان. الشروق بداية نهار لاغب، موقر بالتعب، وحرق الأعصاب، دون أي جدوى ولا أي فرحة، ولا أي تقب صغير في السماء يمكن أن يرى فيه نجمة ويستطيع بثقة أن يوسعه إذا لاح له في المنام. أما الغروب فقد كان يراه في مجده الأرجواني، كلما جاء إلى مقهاه، أي في كل يوم تقريباً، في سماء صافية صاحبة من خلال سحب مهلهلة الأذيال، يسهل على الغروب الهارب أن يضرم فيها النار. وحتى حين كانت زوايع الرمل تهب قادمة من أمنا الصحراء، يتمرغ الغروب كل مساء على صدرها الحنون الرحب ذي الأتداء الألف من كتيان الرمال، فتتلون ذرات الرمل بصبغة كدرة من لونه الناصل الحمرة، فترى الغروب يرقص في شوارع المدينة، ويلون الوجوه والأشياء والهواء نفسه، ويتجلى بكل عظمته المهيبة المدججة برمال الصحراء. وكان السيد معروف يأتي إلى الغروب كالمستجير هارباً من مشكلات بيته الصغيرة والعويصة في الوقت نفسه، سارحاً في مراعيه الوردية بنعاج خياله، فيتخيل الأراضي والبحار والجبال والوديان والأنهار والبحيرات والمدن والقرى التي مر بها الغروب، ويظل يتابع مساره مثلما سيتابعه اليوم. في البداية سيختفي وراء خط النخيل، تاركاً الجانب الشرقي بين مخالب ليل مفترس، ثم يتعدى حدود المدينة العريقة بسرعته الضونية الخارقة، ويطل على مشارف الشام، ثم يدخل فاتحاً دمشق، مجتاحاً عمان، وبعد ذلك يتسلق جبال لبنان، أو عقاب لبنان، على حد قول الخالد الذكر شاعرنا المتنبي، ويضرج مسالكها الخضراء، وذراها البيضاء، ثم يسقط على مياه المتوسط الزرقاء الشفافة على ما يتصورها. ويظل السيد معروف يمتطي صهوة جواده، ويتسلم مفاتيح المدن التي يغزوها الغروب الفاتح بأمر الله.

اليوم خرج السيد معروف من البيت مهموماً تلاحقه أنات أمه، وتوجعاتها المزمنة. كانت السماء صاحبة، والشفق يلون ذرات الغبار العالقة بالهواء. وفي الشوارع حركة مرحة ضاجة، والناس صاخبون منفعلون، وكأنهم يتهبأون لمغامرة مع المساء، على بعد أمتار. سيتسلق درجاته الثلاث، ويسلم رافعاً ذراعه لصاحبه ذي اللحية الخفيفة البيضاء، ويقطع القاعة المتشنجة برنات قطع الدومينو والطاولي (لعبة النرد)، ويدلف من باب الزجاج يودي به إلى شرفة واسعة، أشبه بشناشيل (نوافذ من الخشب المخروط والمشغول)، واجهتها المطلة على النهر نوافذ زجاجية ترتفع عن أرض المقهى بحوالي متر، وتنتهي بنصف دائرة من الزجاج

الملون أشبه بالمروحة اليدوية. وسجد الطلاب منكبين على كتبهم، والصمت والهمس يدغدان الأعصاب ويهينان النفس إلى صلاة ومناجاة. سيسلم على بعض من يعرفهم، بانحناءة خفيفة لا تقطع على الطالب خيط أفكاره الرقيق، ويتجه إلى ركنه المعهود، مصلاه، ويقابل الشمس في انحدارها الانسيابي خلف أهداب أشجار النخيل في الجانب الآخر من النهر، كالميناء الذي ستقلع منه سفينة الأحلام. (نعتر لزباننا الكرام على غلق المقهى أيام قليلة لتوفير الراحة لهم).

لم يقرأ هذه الرقعة إلا بعد أن سعد درجتين. كانت مكتوبة بخط سيئ، وبخطٍ نحوي ظاهر يذكره بالكثير من المراسلات الرسمية التي تمر بين يديه كل يوم، والتي لم يعد يحفل بها لئاسه من إصلاحها. ولكن هذا الكتاب غير المرقم صدمه بعنف، حتى هم أن يخلعه، ويمزقه، مثلما يمزق كتابًا أخطأ في ضرب بعض كلماته على آله العتيقة. وقف مشدوهاً من المفاجأة، ممتعضاً من الخطب النحوي القبيح يطل من الورقة البيضاء، مثل تكشيرة استهزاء يواجهه بها وجه صلف. زَم السيد معروف شفثيه وكورهما، ومطهما باشمنزاز. وخلال ذلك تجمع بعض الزبائن، وقرأوا الإعلان سراً وجهارة، وضحكوا ضحكات شتى لم تدخل واحدة منها السلوى في قلب السيد معروف، الذي أضاع لقاءً منتظراً مع وجهٍ حبيب. وبدأ الآخرون يعلقون:

- سيفرشون لنا المقهى بالكاشان (نوع من السجاد الايراني)

- ويبدلون الدومينو بأخرى من العاج.

- ويضاعفون السعر.

- سنجلس على أرائك.

- كل شيء إلا هذا.. لا يريدون أن نضعف.

- بالعكس يريدون أن نتعب من الجلوس، فننصرف ويحل آخرون محلنا.

نفر من هذه التعليقات السخيفة، وتجمّل بالهرب، ونسي أنه سعد درجتين، فاختلّ توازنه، وكاد يقع لو لم يصطدم برجل سمين امتص الصدمة كالمنفاخ. اعتذر من فم جاف. وفي الطريق قال في نفسه: مساكين هؤلاء لا يهمهم إلا الدومينو والطاولي. لو جردوا من كراسيهم ومناضدهم، وفرشت لهم الأرض، لتربعوا أمام لعبهم كالأطفال. كاشان، هرطمان (نوع من السجاد الايراني)، الله ينصر السلطان. وحثّ خطاه ليستقبل الغروب على شاطئ النهر على الأقل.

كانت المدينة تنهياً لليلها الأسود والزحلاوي. مقاصير بيع السمك، والمقاهي المكشوفة، والحانات المنتشرة كمصائد للغواية والضلالة. وهناك سيل لا ينقطع ممن يجربون أقدامهم بلا هدف، أشلاء نهار يوشك أن ينقضي دون أن يخلف حسرة. وجميعهم، على ما يظن السيد معروف، فارغو القلوب ويتصيّدون ما يشغل بالهم، ويلتهم ساعات فراغهم الفارغة. العيون تتلصص. الألسنة مستعدة للقليل والقال. زهد فيهم، وأسرع يحث خطاه لكيلا يفوت موعده مع الغروب، تسابيح ومعراجه إلى مدن وسماوات لا يحلمون بها. من بين هذا الخلق، في الشارع المسترخى بعد حرّ ظهيرة لا يرحم، جمهرة غفيرة، بالتأكيد، من أولئك الذين جاءوا يتهوون من رائحة المكاتب، وغبار الإضبارات. ومنهم من يزفر مثله، رائحة (كاربون) ترسب في الأنف والحنجرة والأجفان. بعد قليل سيغسلونه بشيء من الخمرة... ليته، ليته يفعل مثلهم أحياناً، ولكن المانع معدة مقروحة تتلوى حتى من زعيق السيارات، وتنقياً من البهارات، ولا تستريح إلا للبن المطروق. واستنشق السيد معروف نفساً طويلاً عميقاً، وزفر حثالة كاربون. وأحس أنه يدخل في بستان الغروب. فإن للغروب رائحة ندية تتجاوب مع رائحة غامضة أخرى كامنة في أغوار النفس تسري رعشة لذبذة خفيفة في الظهر وخلف الأذنين كصدى لموسيقى غير مفهومة، ولكنها مهدنة. ورأى الشمس ملثمة حتى العينين بخمار داكن من خضرة النخيل في الجانب الآخر من النهر فردد: (قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا فعلت براهب متعباً؟! (...)). وابتسمت الأغوار المتلبدة للزجة من نهار كامل قضاه خلف آلة الطابعة. لا. مليحتي ذات خمار داكن الخضرة تغمز لي من وراء الطوفة، هناك.. أهلاً، يا حبيبتي، أهلاً. الأشياء كلها تستحم في الهيولي الوردية التي تغدقنيها على البشر، منذ بدء الخليقة، حيث لا شيء غير الشروق والغروب، ووجه ربك ذي الجلال والإحسان. حياك الله وبياك، وجعل الجانب الغربي مثواك. ولوّح بذراعه اليمنى للشمس

خلصة، وكأنه يقول لها قبل أن تغادر المدينة: أنا هنا، منذ بدء الخليقة أيضاً، منذ أن جعل الله في الأرض خليفة، قبل أن يوسوس له الشيطان ليفسد فيها ويسفك الدماء (...). وتحسّر السيد معروف لأن ذراعه ليست طويلة بعرض النهر لتصل إلى الشمس، ليمسح عنها تلك البقع السود الصغيرة، حبات العرق عن جبين الشمس الدائرة منذ الأزل، وليعبر بهذه الالتفاتة المتواضعة، عن عميق حبه لها بغروبها المرئي، وشروقها المحجوب عنه بألف جدار. وحانت منه التفاتة، في لحظة التجلي والمناجاة هذه، فوقع بصره على وجه مستدير، مثل قرص الشمس، حتى إنه توهم أن الشمس عرفت ما دار في خلده، وجاءت إليه من الجانب الآخر، ضاربة بعاداتها الأزلية عرض الحائط، لتدنو منه، وتستجيب لقصر يده، وتدعه يمسح حبات العرق عن جبينها الفتان، إلا أن لهذا الوجه عينين بشريتين واسعتين لامعتين، وشفتين قرمزيتين، خيل للسيد معروف أنه لمح ابتسامة عذبة حنوناً ترف عليهما في شيء من الحرارة والحنان والفرحة باللقاء، بهذا القرب الشبيه بالعناق، وبهذا الوضوح الشبيه بالعري، وبهذا التيبس الشبيه بالغيوبة. أو لعل الشفتين تحركتا تبادرانه بتحية، بتلك اللغة السماوية العريقة، قبل أن تخلق بابل، وبببل للسان. فكانت مفهومة له وحده، موجهة إليه دون غيره، وكان هذا الوجه، في الحقيقة، وجه امرأة بدا أليفاً جداً للسيد معروف، مثل وجه قريب ضائع كان السيد معروف يبحث عنه، طوال حياته، والآن في مهرجان الغروب الأسطوري، في ضربة حظ موفقة، وجدته أمامه مغموراً بالألق الحبيب إلى قلبه، ألق الشمس الغاربة. وهم السيد معروف أن يتحرك من مكانه، أن يقترب منه. إلا أنه خجل ونكص. فماذا سيقول له؟ بماذا يناديه؟ من أين يبدأ بالحديث معه؟ ظل السيد معروف جامداً كال مسحور، دقات لا يعرف لها عدداً، يتشرب تلك الأسارير الحلوة الصافية البسامة الحنون، ليتركها تنغرس في تلافيف ذاكرته، وتتشبع بها روحه وعقله وخياله. وتابع الناس يمرون به كالأموج وكلفحات ريح شديدة تبعد الوجه الحبيب عنه، وتلفه في زحام الناس. أراد أن يأتي بحركة، باستغاثة، امسكوه! هذا الذي كنت أبحث عنه! ولكن أوصاله تجمدت، وحلقه جف. وخيل إليه أن عينيه أيضاً غابتا، وأخذنا تفقدان الإبصار. فتحمهما. كانت كتل الناس، كالحجارة الصلدة، تحجب عنه أفق بصره. حوله صوب النهر. كانت الشمس قد اختفت، وجثم غول المساء على صدر النهر بلونه الرصاصي تاركاً الطريق مفتوحاً لجحافل الليل.

وجد السيد معروف نفسه يسير مع سيل الناس مستقلاً عنهم بحرر ثمين، وكان الغروب ألقاه إليه في طريق رحلته الدائمة. وكان يحس بنشوة غامضة، وخدر عجيب، وهو يخترق سيل الناس، متفرداً عنهم بسر الغروب الراحل، تاركاً رجليه تدبان إلى ما لا نهاية، في ذلك الشارع الطويل المتعرج، متوغلاً فيه إلى نقطة، ربما لم يتوغل فيها طوال حياته الماضية. كان يريد أن يطيل لحظة النشوة الساهمة هذه، وكأنه في حلم راه بين اليقظة والنام، ولا يريد أن يفتح عينيه، ولا يريد أن يفكر في أن ذلك ما هو إلا حلم عابر، حتى لا يغيب عنه الطيف الحبيب الذي مرّ به خطفاً، في غفلة من الزمن، بين زحام الناس، وقفزات الخيال الشريد. أو كان مثل طفل وقعت في يديه فراشة ملونة، فوضعها في قده زجاجي، وهو يخاف أن تفلت، ويخشى أيضاً أن يضع كفه على عنق القدرح مخافة أن تختنق الفراشة وتموت. فتركها تضطرب في القدرح إلى أن تهتدي إلى الفتحة، وتهرب. كان يريد أن يبقى الطيف العابر في أفق خياله أطول وقت ممكن، دون أن يفكر، تاركاً صورة الطيف تنطبع عميقاً في ذهنه. هدية الغروب. ابتسامة الغروب. كانت تطل عليه من عل. لا تفكر كثيراً، يا سيد معروف. تشرب بها ولا تفكر. تأملها في خيالك، ولا تفكر. أو فكر في موضوع آخر. أي موضوع؟ موضوع آخر. لا بأس. كتابنا وكتابتكم. الكتاب رقم واحد. في حياتك كلها، يا سيد معروف. هل رأيت مثل هذه الابتسامة في حياتك كلها؟ ابتسامة الغروب، يا سيد معروف. ابتسامة حلوة وعينان... عينان حدوبتان.. فعلاً، حدوبتان.. فيهما من الرقة ما جعلك تدوب في مكانك. عجيب. كتابنا وكتابتكم.. موضوع آخر.. فكر في موضوع آخر، يا سيد معروف. موضوع آخر.. أين وضع هذا الموضوع؟ فكر في موضوع آخر. الموضوع: تحويل تفكير. استناداً إلى كتابكم المرقم. كم من الأشخاص والدوائر والأمم والشعوب استندت إليه، وما زال قائماً مثل طاق كسرى. جبل التوباد حياك الحيا.. هل كانت تلك الابتسامة لي؟ معقولة؟ لا، غير معقول. معقول، غير معقول. اسكت، يا سيد معروف. حول تفكيرك إلى موضوع آخر. الموضوع: تحويل تفكير. استناداً.. لا تستند إلى شيء.. المصادفة أم المفاجآت. أختها، عمتها.. ضرتها.. ربما كانت تلك الابتسامة لي حقاً. ابتسامة حلوة، وعينان... حدوبتان. لست أعور، ولا أحول، ولا أعرج. رقبتي طويلة فقط. هل من المعقول أنها رأت رقبتي؟ انقذ شرر من التقاء عينين بعينين. كفي، لا تفكر. الموضوع: تحويل تفكير. كتابكم المرقم، وكتابنا المرقم. بلا رقم. صفر. صفر على الشمال. وأتى السيد معروف حركة مخلولة، وتفتت التراب الهش تحت قدميه. وجد نفسه يمشي على حافة الرصيف المنسرح إلى جرف النهر. وتحت المنحدر نار مشتعلة تُسقف

عليها ثلاث سمكات. صياد السمك اصطاد لك سمكة.. حورية، كانت في انتظاره على الشاطئ، ساعة في ألق الغروب الربيعي.. أذاك الربيع الطلق يخال ضاحكاً.. مبتسماً.. ابتسامة حلوة، وعينان حدوبتان. سيد معروف، لا تفكر. حول تفكيرك. الموضوع: تحويل تفكير.. استناداً..

- سيد معروف؟ مرحباً!

صوت رجالي. بوغت السيد معروف. سقط من السماء السابعة. وجه آخر: ابتسامة أخرى تطل عليه من باطن الليل.

تماماً، كما أراك في ذاكرتي: سارح الفكر، وكأنتك تلاحق الغيوم. عرفه. كلما قابله، على فترات متباعدة، جابهه بحقيقة مزعجة، وكأنما يريد له ألا ينساه. لم يرد أن يجيبه، فإن الدخول في نقاش مع السيد موفق، وفي ليلة ظلماء كهذه، يزرع حوله الأشباح. ولكنه أراد أن يجرب لسانه. فقد تصور أنه لم يستخدمه منذ دهر، وخشى أن يكون قد التصق بحلقه إلى الأبد، خرج صوته جافاً جارحاً.

- لا فكر ولا ملاحظة في هذه السماء الصافية المنجمة.

- ما هو إذا؟

- (شيء خصصت به من بينهم وحدي).

- هذا هو التجلي إذا.

- لا تحسبه بحسابك الخاص.

- نوع من التفكير الرامي.

- لا، أبداً. لا فكر، ولا تفكير.

- لماذا تنكر التفكير، يا عزيزي معروف؟

- الأشياء الذاتية لا تسمى تفكيراً. شيء تفرزه النفس كالدموع، كالضحك والبكاء، كوجع المعدة.

- كل شيء نتيجة تفكير.

انزعج السيد معروف، فقال في فلتة لسان:

- لا، لا أنا أقبل بهذا التفكير ولا أمي.

وارتدت هذه النكتة الباردة إلى نفسه كالنصل، فارتبك. أمه هنا أيضاً! آسف، يا سيد موفق، آسف. تداعيات سابقة. وخلال ذلك كان موفق يحاصره:

- صمتك تفكير، إنكارك تفكير.

- سيد موفق، لا تضعني في رحي تفكيرك. أنا ضد التفكير، إنسان يعيش بلا تفكير.

- ولكنك في الماضي، كنت تريد أن تعرف كيف يعمل العقل البشري.

- لم تعد لي هذه الرغبة، ولا أي رغبة أخرى غيرها.

- لماذا، يا سيد معروف؟

- لأن الإنسان إذا كان... إذا كان معجولاً بالأم كثيرة، فلماذا يضيف إليها وجع الرأس من جراء تفكير لا يجدي؟

-
- التفكير يضعك في موضعك الصحيح كإنسان .
- عندما يتجاوز الإنسان الأربعين يخاف من التفكير، ويشغل بالأحلام.
- الأحلام تفكير فوق مستوى الواقع.. ولكنها مفيدة بالقدر الذي لا يعرفه إلا القلائل من المفكرين. التفكير يحيط بك من كل الجوانب.
- وما فائدة التفكير؟ قل لي من فضلك.
- للوصول إلى ما هو أحسن.
- لم أعد أحفل بما هو أحسن.. أو لا أرى أفقًا لما هو أحسن..
- لا، سيد معروف. أنت متشائم.
- كلمة تقال.
- قل، يا سيد معروف، وأنت المتبحر في اللغة: ما معنى كلمة إبليس؟
- لا أدري. إبليس هو إبليس وكفي.
- لها معنى بليغ جدًا. سمى إبليس، لأن الله إبلسه. أي أياسه من الخير...
- أسقط في يد السيد معروف. كان يرى أسنانًا لامعة في الظلام. هل يضحك موفق منه؟
- لا أغير من الأمر شيئًا، إذا أضفت إلى الأبالسة واحدًا، فعددهم في الدنيا أكثر من اللازم.
- هذا حكم، هذا تفكير. أنت مفكر، ولكنك تخاف من البوح بتفكيرك.
- نفس النعمة القديمة. أما تزال على تفكيرك القديم، يا سيد موفق؟
- نعم، أنا على نفس عقيدتي.
- لا بد أن لك أطفالًا الآن.
- جازف السيد معروف في أن يستفسر برغم ما في ذلك من إثارة لماضٍ قديم، يوجعه أن يسترجعه.
- أربعة. وهل يغير الإنسان إيمانه، إذا رزق بأطفال؟ نفس الحصار القديم سيضربه موفق عليه. وكان شيئًا لم يحدث.
- وجد السيد معروف نفسه يقول:
- الله يحفظهم لك - ثم أراد التخلص بسرعة من لقاء محرج فسأل: كم الساعة الآن؟
- أما زلت مضربًا عن الساعة؟
- الشمس تحدد لي المواقيت. ولم يقل له اضطرت إلى إدخال الساعة في البيت من أجل أمي. لن يذكر أمه مرة أخرى، أمام موفق.
- وإذا كانت الدنيا غائمة؟
-

- أرى الشمس من خلال الغيوم.

- أنت تفكر في الشمس إذا.

- في غروبها.

- ولماذا في غروبها؟ أليس ذلك دليلاً آخر على تشاؤمك؟

- لأنني لا أرى شروقها. وهذه قضية خصوصية بحت.

- أما أنا فأراها كل فجر.

- ربما لأنك الآن تسكن حياً يرى الشمس. قلت لك: هذه مسألة خصوصية بحت.

- لا بل أراها في تفكيري، تملأ الأفق.

- إذا أنت أنقصت الأبالسة واحداً، وأنا زدتهم واحداً.. تعادل.

- لا، سيد معروف. لا تعادل بين الخير والشر.. لا بد أن تغير رأيك.

- نعم، الموضوع تحويل تفكير إذا؟ أفلتت هذه الجملة من لسان السيد معروف، فأمسك بها موفق.

- أحسنت، لا بد أن تتحاز إلى جانب الخير..

- أنا مع الخير قلبياً، على ألا يكلفني أكثر من طاقتي..

- الكداح لا يفقد إلا أغلاله.

- كلام يقال، يا سيد موفق. أرجو لك السلامة.

- ولك أيضاً يا سيد معروف.

- في الحذر السلامة، سيد موفق. وتصافحاً في الظلام. ابتعد السيد معروف عنه بسرعة. لقاء مع موفق غير موفق. بدا وكان دهرًا يفصله الآن عن سلسلة أفكاره السابقة. أفكار؟ لا،

أحلام؟ لا، مجرد هذيان. الموضوع تحويل تفكير. نسبة لا يعرفها إلا المفكرون. خزعات. اسكت. انس التفكير. سأصرخ ملء فمي: انس التفكير. الموضوع تحويل تفكير. ما هذه المشكلة الجديدة، يا سيد معروف؟ كأن المشكلات لا تكفيك، يا سيد معروف. وجه يطل عليك ملقاً بالغروب، مبتسماً ابتساماً غامضة؟ غامضة؟ لا، واضحة. فيها فكرة. فكرة السيد موفق. ابتساماً حلوة، وعينان حدوبتان. اسكت. انس الموضوع. لعنة على أبي التفكير، الحقير بن الحقير.

بدأت أوكار الليل تقذف ما في أحشائها. الأصوات جارحة. والروائح حادة. وأنفاس النهر مضمخة بزفر السمك. والشمس تدب هناك، وراء سُجف الليل المتكاثفة. كل شيء تجاوز حده ينقلب إلى ضده. أم كيف كان موفق يقول في الزمان الأول؟ الكيفية تنقلب إلى نوعية. لا. الكمية تنقلب إلى نوعية. كم. كيف. نوع. جوع. لا أدري. المهم انقلاب... مفاجئ.. ضروري.. خطير.. إذا برز لك وجه حلو فجأة.. ابتسم لك في حنايا الطريق. التفت عيناه بعينيك. داعب خيالك بابتسامه. أين كان في الماضي؟ كمية تحولت إلى نوعية. أحلام تحولت إلى واقع.. جوع تحول إلى مغص في المعدة. أوف. لعنة الله عليك يا معدتي. لولاك لخرجت نشوان من وكر، مترعاً بالخمير وقدر هائل من الأوهام لا يعرفه إلا كبار المجانين. اصبري، يا معدة، أرجوك. ليس لي في الحياة غيرك، وغير أم عجوز توشك على العمى التام، وأختين تجاوزتا سن الزواج المسموح به في تقاليد لم أخط أنا حرفاً منها، حتى في عز شبابي، أيام كنت أحرر الكتب الرسمية محاولاً أن أشدبها من رواسب

مكتبة الملتقى

عثمانية وأنفخ فيها نفثة من روح. أوه، كم يتعذب الذين يحيون أوطانهم في تفاصيل زائدة عن اللزوم! كأن الغروب زائد عن اللزوم. الابتسامة الحلوة زائدة عن اللزوم. رائحة الليل الوغرة زائدة عن اللزوم. الصراير زائدة عن اللزوم. ودفع باب بيته ودخل.

مصباح شاحب في الطارمة (الشرفة). للنوم والكسل رائحة عنكبوتية. لزوجة طعام ثقيل، تقلصت له المعدة.

- مرهونة، أهذا معروف جاء؟ لأمه حاسة مرهفة تعويضاً لبصر ذاهب.

- نعم، أنا، يا يوم (يا أمي)

استدار إلى اليسار فرآها على سريرها مكورة محدودة، باسطة الذراعين إلى الرجلين المدورتين، ملفوفة الرأس والرقبة بغطاء ربما تحسب لونها الأبيض رمادياً، فقدت الآن نعمة الإحساس بالألوان. سيان عندها الليل والنهار، الصباح والمساء. ومن أجل ذلك أدخل الساعة إلى البيت.

- تأخرت! جعلتني في الوسواس. جلس على حافة سريرها:

- لست طفلاً، يا أمي.

- خفت عليك. طار النوم من عيني. قلت لنفسي: حصل له شيء.

- لم يحصل، ولن يحصل.

وعضّ على شفتيه لأنه كذب. وقسا بعضته لأنه يعرف أن أمه لن تراه يفعل ذلك. أين ذهبت، إذن، تلك الابتسامة الحلوة، والعيان الحدويتان؟ وهل من المعقول أنّ أمه تفهم لحظة التجلي تلك؟ ستقول إن ابنها الأوحّد تخبل. أو إنه يركض وراء سراب، ليتركهن وحدهن.

- كنت في المقهى؟

- كنت أتمشي على شاطئ النهر.

- في الليل؟

- يحلو التمشي.

تنهدت الأم عن عجز وخيبة. وغطست في بنر صمتها. منذ دهر لم تغادر دارها. ربما نسيت أن في الدنيا نهاراً، وغروباً، وابتسامة حلوة تسبح في ألق الغروب. وأحس بأحزانها الصامتة القنوط. مسّ يدها. كانت حارة مرطاء. أوه، يا أمي، ليتني استطعت أن أزيح عن عينيك الماء الأسود لتري قسماات الأشياء. ولكن صدق من قال: الأطفال وكبار السن يخشون الموت أكثر من الآخرين.

- لم تلتق بأحد؟

- لم ألتق بأحد، وبمن ألتقى؟

أفجعت كذبه الثانية، كأنما تخلى، في لحظة من حب الذات، عن شيء ليس من السهل التخلي عنه. من الكفر أن يقول لها إنه التقي بموفق. فإن هذا الاسم مرتبط بماض ما يزال معلقاً بين الخطأ والصواب، وإثارته تثير شجناً في القلوب. ستصاب بنوبة قلبية. إذا ذكر اسمه لها، سيرتفع ضغط دمها المرتفع أصلاً. وتعال، يا معروف، خذها للطبيب. والصمت أيضاً مقلق ولئيم. والحسرة تضرم ناراً في داخل القلب. نهض السيد معروف من سرير أمه.

- مرهونة، صبّي لي شيئاً أسدّ به معدتي.

- أما زالت هانجة عليك؟

وكذب كذبة ذكرتة بوجع معدته المزمن، والوجع الذي يبدو له أحياناً وكأنما ولد معه، وكان ألصق به من جلده. في الطارمة همس لمرهونة حين جاءت له بصينية الزاد:

- محبوبة نائمة؟

- لا، عند الجيران.

- في مثل هذا الوقت؟ تعليلة رمضان؟

- ذاهبة لأناديها.

- لا، لا تذهبي.

لا يريد أن يراها. موفق يملأ سماء ذهنه. نافورة حنق تنبع من مكان خفي في أعماقه، جعلت منظر الطعام كريهاً عليه. تقلبت منه أحشاؤه، وتقلص حلقومه.

- أوف! هل تتصورين أن معدتي تقبل كل هذا الدهن؟

- أين هو الدهن؟

- كل هذا الطوفان من الدهن لا ترين ه؟ أعطني قطعة جبن أتبلغ بها. أطرقى (اخفقي) لي طاسة لبن. لا أريد أن أقضى الليل ساهراً مع معدة تنن.

- حرام عليّ إذا كنت وضعت ملعقة دهن، ولكن ماذا أقول للقصابين؟

جاء صوت هرم من الغرفة:

- مرهونة، ما هذه المناكدة؟

- لا شيء، يوم. نامى نومة العافية.

(لا تدعيني آخذك للطبيب)

جاءت محبوبة، وهو يؤدم الخبز باللبن المطروق. نكس رأسه. لا يريد أن يراها اليوم. سيتطابق الوجهان في خياله. من الممكن أن يكون لها الآن أربعة أطفال، يسمونه خالي معروف. لا يريد أن ينبش تاريخاً لا يحسن أن ينبش، ولا يجوز أن ينبش. ليدعه راقداً في ذاكرة كل إنسان منهم، على طريقته الخاصة. ميتاً أو حياً، مشوهاً أو سليماً. ودعها تنفس عن نفسها بزيارات مطولة إلى بيت الجيران. للتلفزيون سحر لمن اختزلت حياته، وحصرت بين أربعة جدران. آخر موجة للترفيه عن الأسرى. سقط اللبن المملح في معدته بارداً منعشاً، لذيق المذاق. وامتزج بعصاراتها المتقلبة الأطوار المنحرفة أبداً. مغص محتمل، خفيف على المعدة ليس مثل كذباته اليوم. والرأس يضج بالصور. ومرهونة جالسة في ركن تنظر إليه بعينين ناعستين، تتوسلان إليه أن ينهض. لا بد أن عمل اليوم، أو كسل اليوم قد أتعبها. لملم نفسه سريعاً، ودخل إلى حجرته. وكان هو الآخر يحس بتعب لذيذ، بثقل في المفاصل يغرى بالاسترخاء. كأنما عاد من سفر بعيد.. من حج.. حج مبرور، وسعى مشكور، وتجارة لا تبور. ولاح له الوجه المدور من وراء سبعة بحور، ابتساماة حلوة، وعينان حدوبتان تستقبله على أحد الشواطئ بعد عودته من رحلة العمل اليومي المضنية منقل الجفون بغبار الكاربون غير المنظور. كيف رأته، وهي تطل عليه من عليانها شمساً تؤوب إلى خدرها؟ "" (تنورتها من أذرع، وأهلها بيثرب، أدنى دارها نظر عال). ولأول مرة، يرى في الليل، وجهه في مرآته العتيقة المحكوكة الحوافي، وصار يردد مع نفسه: لست أعور، ولا أحول، ولا أقرع، ولا أحلج، ولا أشدق، ولا أشرم، ولا

أفطس، ولا فاسد الأسنان. ودع الرقبة جانباً. خلع القميص فلاحت طويلة مثل رقبة الزرافة. قبحتها الله من رقبة.

والرأس في آخرها يقبع صغيراً، والوجه قاسى التقاطيع، كدر البشرة مجذب، محروق من شواظ شمس تجفف الخضرة وتستنزف النضارة بسرعة. عاف المرأة، وارتمى على السرير. لم تره بهذا الشكل، وإلاً للاح الاشمزاز في عينيها، ولتطيرت مثل تطير ابن الرومي من جاره الأحذب. كان وجهها فياضاً بالحنان. وكأنما تعرفه منذ زمان. ربما رأته غير مرة، في طرق الحياة المزدهمة. لم يكن في عينيها ذهول المفاجأة، ولا سهوم الاستغراب. كأنما تركته لشأن من شؤونها، وعادت إليه لتصحبه وتأخذه إلى خدرها الغروبى. وهو أيضاً لم يفاجأ. لم تعتره رعدة، وتعرق خجلاً واستحياءً. لكنه سحر من الألفة والقرب. من دفقة الحنان الذي كان يفيض من وجهها، من حلاوة الشهد التي كانت تلمع في ابتسامتها شفيتها. كاد يلحق بها. يناديها. أنا أعرفها، يا ناس. أعرفها منذ زمان، نصيبى الضائع رأيتة في الزحام. ربما كان يلاحقنى، يتلصص عليّ، يسير ورائى كظلى، طوال تلك المدة، عشر، عشرين سنة كان يتعقب خطاى، ويشهد الأربعين وقد بلغتها، والخمسين، وأخاف الدنو منها.. أوه، الله أكبر. شاب بالخمسين. كيف مرت تلك اللحظة خطفاً؟ لماذا لم أرد الابتسامة بابتسامتها، وأسنانى لم يتاكلها النيكوتين؟ لماذا لم أفهمها شيئاً، بغمزة، بإشارة، بتمتمة شفاه؟ لماذا لم أتكلم معها؟ أهلاً، وسهلاً، تشررفنا. أنا هنا، في الانتظار، كل غروب شمس. ربما أنت تحبين الغروب مثلى؟ انظرى إليه: سحابة وردية طائفة. هل تحبين أن تحلقى مثلى، فوق الأرضين؟ على أشعة الغروب، نظوى الأفاق، ونجتاز الوديان والبحار، وتنسلق الجبال؟ لا؟ على كل حال، أهلاً، وسهلاً. خادمك له نزوات، منذ الصغر صاحب شطحات. لا، لست متزوجاً. قسمة ونصيب. على كل حال، التعارف يكفي. نلتقى ساعة الغروب. أشم فيك رائحة الغروب. رائحة البنفسج. ما رائحة البنفسج؟ لا تدخل نفسك في أمور لا تعرفها، يا سيد معروف. سر على ما كنت تسير عليه دائماً. لا تعرف ما لا تعرفه، ولا تتدخل فيما لا يجوز التدخل فيه. المهم أن تتعرف عليها، وتتعرف عليك. نعم. قسمة ونصيب. أم عجوز، وأختان عانستان. لا. قسمة ونصيب. سنحت الفرصة للصغرى، فمنعتها أمي. ركبت رأسها. وقالت: لا! ومرهونة تبقى عازبة؟ لم تقل: ومعروف يبقى عازباً؟ بل قالت: وأختك الكبيرة تبقى عازبة؟ ربما كانت تتنبأ بأن أفاك؟ تقرأ في اللوح المحفوظ؟ على كل حال، أهلاً وسهلاً. ليغمرنا الغروب بأشعته الحنون، ويباركنا، ويبارك لقاءنا. دقت الساعة في الطارمة دقتين. والنوم بعيد بعد الغروب عني الآن. زن.. زن.. لا تفكر، يا سيد معروف. أغلق دكان تفكيرك.. أو حولّه إلى شيء يجلب النوم إلى جفنيك. لا تفكر. الموضوع: تحويل تفكير.. كتابنا، وكتابكم. وشوشة الساعة في الأذن. كم هي ثقيلة ومزعجة هذه الساعة. اشترىتها من أجل أمي، التي لم تعد ترى الغروب والشروق. تسمع دقاتها المخرخشة، فتفيس عليها ما تبقى لها من ساعات. كانت دقاتها تغيظنى، وتوقظنى من غفوة عسلىة.. دائماً تأتي غير مدعوة، في وقت غير مناسب. واللييلة ساطل أسمع دقاتها.. أنتظرها انتظاراً حتى الصباح. أمه، هل أنت مستيقظة مثلى؟ هل سمعت دقتيها الاثنتين؟ اللييلة أسمعها معك، وكأنها دقات قلبك المخرخش، أسمع نبض حياتك الحزينة المترملة الحافلة بالمأسى والكدح. رغيفاً الخبز لم أنسهما. ربما نسيتهما أنت، من بين أشياء كثيرة يزدهم بها طريق عمرك. ولكننى لم أنسهما. ذكريات الطفولة كالنقش في الحجر. اضطرار، تيتيم. وكان لك ثلاثة أفواه يجب أن تلقيها بشيء ما، بخبز مسروق. أو مشترى بالكدح والعرق. رغيفاً خبز محمص، مبطظ لذيذ، مدور مثل وجه الحبيبة التي مرت بي اليوم، في غفلة من الزمن، حمراء، قوراء، بسامة الشعر، لمياء. ماذا يقول مميز (رتبة وظيفية إدارية تعادل رتبة المفتش) التحرير عن هذه الكلمات؟ كتابنا وكتابكم.. استناداً إلى ما مرّ بي اليوم، ساطل مسهداً حتى الصباح.

و سيشطب الأستاذ عبد الرحيم على (مسهد) ويكتب (ساهر). أو ربما (أرق). أرق على أرق. مصيبة وراء مصيبة. والمصيبة أننى لم أرقواها. أظنها طويلة مثلى، غصن بان، ولكنها ليست نضواً مثلى. نضاً ينضو نضواً. عامرة الصدر بالإيمان أو بغيره.. رحلة أسمر مقبلها، سبحلة أبيض مجردها. ما رأيك يا أستاذ عبد الرحيم، يا عادل العاشقين دع فنة أضلها الله كيف ترشدها؟ ليس يحييك الملام في همم، أقربها منك أبعدها عنك.. أه، يا مميزى! بنس الليالي سهرت من طربى شوقاً إلى من يبيت يرقدها، قرير العين، لا يثقل على فؤاده هم. اسكت يا سيد معروف، اسكت. لا تتكلم في النوم. عادة سينة تجعل سريرك فارغاً حتى بقية العمر. دقت الساعة ثلاث دقات. دزن.. دزن.. دزن! سهران بين تفكير وتحويله. الموضوع تحويل تفكير. كتابنا وكتابكم ساطل أكررها حتى أنام. كتابنا وكتابكم، كتابنا وكتابكم، أريد أن أنام.. أنام.. أنام.. في الحمام. خفيف. طائر. يا ريتنى طير، وأطير حوائيك. أين أنت يا صاحبة الوجه البسام والعيين الحدوبتين؟ بنس الليالي.. من يدري؟ ربما هي أيضاً تسهر عن طرب. والطرب من معاني الأضداد، يا أستاذ عبد الرحيم. الاهتزاز من فرح أو ترح.. المهم الاهتزاز في الطرب. الروح تخف فتهتز. لم الليالي التي أخنت على جدتى، برقة الحال، واعذرنى ولا تلم.. لا ملام بعد الساعة الثالثة ليلاً، والغروب على الأطلسي يزحف زحفاً لا يقهر مخلقا طنجة وراءه، وجزر الكنارى. البحر من ورائكم والعدو أمامكم، وليس لكم، والله، إلا السهر حتى

الصباح.. أنتم في هذا الليل البهيم أضيع من الأيتام في مأدبة النوم. لا ينجيكم منه معقل وعقل، ولا مفازة سبع، ولا قعر بحر، ولا رأس طود.. ولا أي حماية أخرى من تلك التي عدّها السيد الجاحظ. والسكوت أفضل في مثل هذه الحال، لا لأنه من ذهب، بل لأنه يقطع دابر التفكير، ويسلم إلى النوم العسير حتى الصباح المنير، والله، بعد ذلك التدبير أو حسن التدبير.. دزن، دزن، دزن. سعلت أمني بعدها معلنة عن قلقها في الساعة الثالثة ليلاً، وفي الساعة الثامنة صباحاً سيكون السيد معروف مدحوساً في أحد الباصات العامة. دحس، يدحس، فهو مدحوس. الداحس والغبراء. المهم أن تكف عن هذا التفكير، يا سيد معروف. الموضوع.. كتابنا وكتابكم. لو أعرف عنوانها لأرسلت لها كتاباً. الموضوع: طلب يد. استناداً إلى تلك الابتسامة الحلوة، والعينين الحدويتين يتشرف المدعو معروف الدواليبي، الموظف في قلم التحرير، والمنصب حالياً للاشتغال ككاتب طباعة، والمرقي مستقبلاً إلى أن يصبح مجنوناً.. والله سأصير مجنوناً إذا لم تغمض عيني.. بس، انتهى. ارفع الكتاب من الآلة الكاتبة ومزقه. أجل مشروعاتك لليوم التالي. وتمّ ولا تشغل نفسك بتفكير وتحويل تفكير.. فإن ذلك شيء طارئ في حياتك أثارته ابتسامته حلوة وعينان حدويتان. أوه. عدنا إلى الابتسامة الحلوة والعينين الحدويتين.. أوه، كفي. ما خلافاك السابق مع السيد موفق إلا على أنه كان يجرك إلى التفكير. لا تفكير ولا بعير، ولا موظف ولا مدير، حتى الصباح على أقل تقدير.. فاه.. لطيف، بدأت أنتاعب. تتاعب عمر إذ تتاعب خالد.. كفي، فيما بعد، يا سيد أبا العلاء.. سنتحقق من حصول العدوي. سنفاهم. الموضوع: حسن تفاهم. أين حسن التفاهم هذا.. مع النوم؟ كفي. ييس حلقي. لو أشرب جرعة ماء. وبعدها سأنام. تعبان، وجسمي ثقيل، ورأسي مثل غرفة الآلات الطباعة.. سأعطي رأسي بالحاف، لعل السيد المحترم ثاني أكسيد الكربون يهدى سنة من النوم. فاه، فاه.. تتاعب عمر إذ تتاعب. بدأت أرى الصور.. هذا شيء لطيف.. رؤية الصور تدخلك إلى دنيا الأحلام. صور.. صور.. هل أنا أحلم؟ دزن، دزن.. دزن.

سمعها السيد معروف ما بين المرات السبع والثماني. تضعض السرير من هيبته القوية. الشغل. الدائرة. قدح الشاي لإبلّ الريق. وصعد سلم الدائرة مغمض العينين تقريباً، يكاد يصطدم بالناس أو الجدران، موزعاً (صباح الخير) بكثرة للتحية والاعتذار وإزالة الكلفة، أو بعضها جاء طائشاً بلا عنوان، فلم يرد عليه أحد. صباح الخير في لهات الدرجات الأخيرة، وكأنه سعد (الملوية) (منذنة مسجد سامراء المشهور)

كان فراش المدير أمامه، في الصالة المربعة في الطابق الثاني. سلم عليه. - صباح النور، (أغاثي) (سيدي). اليوم متأخر، يا سيد معروف.

- نعم.. بضع دقائق.. أخذني نوم الصباح.

- غداً ينعقد اجتماع لجنة النشر لدي سيادة المدير، هل ستحضره، يا سيد معروف؟

- لا، أعفوني منها.. منذ زمان.. سنة. وكأنه لا يعرف (جباراً الأجلح) هذا، فراش المدير الذي يعادل أربعة من كتاب الطباعة. ولكن إنا لله، وإنا إليه راجعون. دفع باب غرفته إلى اليسار.

- صباح الخير!

ردت بعض الأصوات، منها صوت عنيد:

- صباح التأخير. كان الأربعة كاملي النصاب في الغرفة.

- أرجو المعذرة.. هذه باصاتنا، وأنتم تعرفونها...

- نحن نعرفك أكثر.

- شكراً على المعرفة.

هل يقول لهم كيف قضى ليلة نابغية (مثل في ليلة الهم والأرق)؟ لا بأس. ليصمت. إنا لله وإنا إليه راجعون. كما لا بأس بهذه النفاضة التي يتركونها كل صباح على منضدته، لإغاضته وتسميم صباحه.

- نفاضتكم، يا سادة.

مكتبة الملتقى

- نرجو المعذرة نسيانها على مكتبك، حين نقلناها إليه لننظف مكاتبنا.

الحجة نفسها. لا بأس. كذابون أشرون. والمهم ألا يضحكوا ضحكهم الجماعية الساخرة، حين ينقلها إلى إحدى مناضدهم. لم يضحكوا حين رفعها، ولكن أصابعه ارتجفت من أرق البارحة. فضحكوا، حين وضعها على المنضدة في ضيق، وكأنما يتخلص من حشرة ميتة.

كوم المحرر (ضبة) أوراق على منضدته قائلاً: (أنت تهتم بالخطوط). وبدأت الآلات تدق، مثل حوافر خيل مخبولة. ثلاث آلات جديدة، ورابعة قديمة كان من الممكن أن تنقل للاستيداع. ولكن ما تزال فيها (روح) (...)، والسيد معروف صبور، قنوع، يخاف الله وأولي الأمر. أعطيت له ليتدرب عليها منذ أن نقل من محرر إلى كاتب طباعة، بنفس الراتب الاسمي في الحقيقة، فاحتفظ بها حريصاً عليها، وكأنها آخر معقل يحتوى به، في هذه الدائرة التي استقر مقامه فيها منذ عشرة أعوام.

قال المحرر السيد هاشم:

- هذا تعيين آخر. بدأ الجنس اللطيف يغزو دائرتنا.

قال السيد عبد اللطيف كاتب الطباعة المخضرم:

- أليست هذه نعمة، أن يصبح الإنسان على وجه صبوح؟

وجه صبوح، وجه صبوح، ابتسامة حلوة، وعينان حدوبتان.

- عبد اللطيف متفائل. ليست كل من لبست فستاناً ذات وجه صبوح.

- كل اللواتي يشتغلن في قسم المحاسبة ينطبق عليهن هذا الوصف. واحدة منهن تصلح لأن تكون زوجة للسيد معروف.

- فكرة صائبة.

الزواج حق من حقوق السيد معروف. هذا مسوغ قانونياً.

- لها عيون واسعة على وجه تضاريسي.

- وشعر كالليل البهيم، وجسم دسم وكأنها تسيح كل يوم بالحليب.

- ما رأيك يا سيد معروف؟ قال السيد معروف كلمته الحاسمة:

- لست محتاجاً.

- يعني، مكتف ذاتياً؟

- فسّر، كما يحلو لك التفسير.

- وإلى متى يعيش الإنسان على الاكتفاء الذاتي؟!

- كل إنسان يعيش على ما في نفسه.

تعيش على ابتسامة حلوة، وعينين حدوبتين. لست أعور، ولا أحول، ولا أعرج، ولا مشقوق الشفتين، حتى ولا أخشم، مثل عبد الرحمن الداخل. صحيح أنا مثله خفيف العارضين نحيل، طويل الرقبة بشكل غير مقبول. أوه، اسكت، يا سيد معروف، اسكت، كتابنا وكتابكم. الموضوع تحويل تفكير. جاءه من خارج مختبر تفكيره:

ملتقى البحرين

<http://www.bahrainonline.org>

جاءه من خارج مختبر تفكيره:

- نريد أن نحل عقدة السيد معروف. وهو يتمسك بها.

فردّ عليهم من داخل مختبر التفكير: عقد الله لسانكم. ليس لكم غير هذا اللسان الفالت. كلمات فارغة. حياتكم مليئة بالكلمات الفارغة. هل تمتعتم بالغروب مرة واحدة في حياتكم؟ هل طار خيالكم مع الشمس تلاحقونها إلى آخر الدنيا؟ طنجة. سبتة. سرقسطة. باجة. ويبحرون فراراً من الليل. البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، في شبه جزيرة الأندلس، المليئة بالبحور الحسان، من بنات اليونان، الرافلات بالدرّ والمرجان. الله ينصر السلطان. اسكت، حولّ تفكيرك. كتابنا وكتابكم. الموضوع: تحويل تفكير. وبوغت السيد معروف بسقوط جمع قوي على منضدة اهتزت له أركان المنضدة. وعاد السيد معروف إلى الشرق الكنيب. كانت الضربة صادرة من مكتب المحرر السيد هاشم.

- خمسين مرة، مائة مرة، مليون مرة. قلت لك، يا سيد معروف لا تغير في الكتب الرسمية. هذا ممنوع قانونياً. قال السيد معروف بصوت صادر من غور عميق:

- وهل وجدت تزويراً؟

- أسوأ. هذه تشكل جنحة.

- ولكن المئتي يرفع بالألف والنون، يا سيد هاشم.. (شعبتان)، والله العظيم، (شعبتان)..

- وليكن. لكن ليس من وظيفتك أن تصلح. أنت كاتب طباعة، ولست محرراً. كان عليك أن تستشيرني.

- هناك أشياء نقوم بها دون حاجة إلى استشارة، مثل إمطاة الأذى عن الطريق. لقد أمر الله بها. ضحكوا. وانكب السيد معروف على طابعته، وكتابنا وكتابكم. يضحكون على أنفسهم، هؤلاء الفتية المناكيد. وأصدر السيد هاشم حكمه القانوني:

- ستجد نفسك يوماً تحت طائلة القانون. غضب السيد معروف. رفع رأسه وأسبل يديه المتعبتين.

- لا تفرع رأسي بالقانون، يا سيد هاشم. أنا أيضاً درست القانون.

- أين درسته؟ في أي حلقة؟

- في حلقة الدرويش الزمان. لا تسخر، يا سيد هاشم. في كلية الحقوق، مثلك.. عندما أنهيت الدراسة الثانوية، دخلت كلية الحقوق، في القسم النهاري، وليس في القسم المسائي، مثل حضرتك.

- وسقطت في الامتحان، ولم تكمل؟ استعصت عليك المجلة، الشريعة، التاريخ الروماني؟

- لا تعدد كل ذلك. أنا أعرف هذه الموضوعات.

- ولماذا لم تكمل؟ لماذا لم تتخرج محامياً، حقوقياً؟

- نصيب، حظ أھوج، يا سيد هاشم. عندما دخلت قاعة الدراسة الضخمة، لأول مرة، رأيت نفسي، وكأني في قاعة محكمة، أو قاعة مسرح.. يوم الحشر. أرجو أن تفهم نفسية طالب منطو تعود أن ينزوي في صف من خمسة وثلاثين طالباً، وإذا به يجد نفسه فجأة، وسط أكثر من مائة طالب، أصغرهم أكبر سناً منه.

- فخاف.

- نعم، خفت للأسف.. أو بالأحرى، خجلت. ضحكوا دون خجل.

- كانت لحظة ضعف.. لحظة ضعف.
- جعلتك تترك الدراسة.
- ليست هي وحدها. هناك أسباب أخرى، يا سيد هاشم، لست مستعداً للخوض فيها.
- وتنهد السيد معروف. الصمت مغيظ مثل ضحكة مكتومة. ألسنتهم الساكنة تنهياً لغارة جديدة عليه. تحاشي النظر إلى وجوههم. وانكب على طابعتة. كتابنا وكتابكم. الموضوع تحويل تفكير. ابتسامة حلوة، وعينان حدوبتان. والغروب غلالة وردية توطر وجهها، ويملاً خياله. لحظة ضعف وانهيار. لست أعور ولا أحول ولا أعرج ولا أعضب ولا أجرب. وليس لي أي عاهة من العاهات المشوهة للوجه البشري. خيال. تفكير. كتابنا وكتابكم. الموضوع: تحويل تفكير. مَنْ يَكُ ذَا بَتْ فِهَذَا بَتِي، مَقِيظٌ، مَصِيْفٌ، مَشْتَى.
- إذا، فالقضية لم تكن تتعلق بالذكاء.
- أي قضية؟
- حَدَجَةُ السيد معروف بنظرة حادة.
- تأكد، يا سيد هاشم. كنت الأول في صقى. مستوى ذكائى، على العموم، أعلى من المتوسط.
- هل قسته؟
- بكل المقاييس.
- كم سنتيمتراً؟ كم حقة؟
- الذكاء كالخيال مادة أثيرية.
- ضحكوا. ذلك أهون من صمتهم البارد المغيظ. وقال السيد عبد اللطيف:
- لهذا يقولون: يلتقط الفكرة، وهي طائرة.
- عاد السيد معروف يؤكد مفهومه الخاص للذكاء:
- الذكاء موجات غير مرئية تنفذ إلى الأعماق.
- إذاعة سرية تلتقط ما يجرى في بال الناس.
- لا نعرف بماذا يفكر السيد معروف الآن. يلتقط أفكارنا براديو ذكائه.
- أحسنت. جهاز التقاط سرى.
- يعني خطر..
- خطر، بالتأكيد. الأذكىء خطرون دائماً، يحوكون شيئاً مخيفاً في أدمغتهم.
- جهاز التقاطى موجه إلى داخل نفسي.
- وماذا ترى هناك؟!

- ابتسامة حلوة، وعينين حدويتين.

- يا ساتر، استر!

- ألم أقل لكم إنه مكتفٍ ذاتياً؟ وظلوا يثرثرون خارج أفق خياله.. حيث كانت الابتسامة الحلوة والعينان الحدويتان تسبح في غمامة الغروب الوردية، بعيداً عن كتابكم المؤرخ، والموضوع تحويل تفكير. وحين دنا من مكتب السيد هاشم ليقدّم له دفعة ثانية من الكتب المطبوعة، رأى في عيني المحرر ابتساماً من نوع آخر، غريبة جداً، ابتسامة مفترسة محت من خياله، للحظة واحدة، ابتسامة البارحة.

- هل من كتب أخرى، يا سيد هاشم؟ (همّ أن يقول: هل من ابتسامة أخرى؟).

- الكتب لا تنتهي.. سأتحفك بها، بعد أن أعود من اجتماع قصير في غرفة المميز.

وفي الصمت الخامل، بعد خروج السيد هاشم، قال صوت ممطوط، وهو صوت السيد كاظم:

- نحن نجور على السيد معروف كثيراً.

- مَنْ حَبَّكَ لا شاك (مازحك أو داعبك)

ال صوت السيد مطر:

- المهم ألا ندعه يدخل في الصمت.

- ابتسم، يا سيد معروف، ابتسم.

- ما دامت أسنانك سليمة.

الابتسامة تملأ خيالي. وأنا لست أعور ولا أحوّل ولا بأسنان اصطناعية. ولو أن الضرب على الآلة الطباعة يشنّج أصابعي، ويكاد يقصفها. توقف، ونظر إليها. أعواد نحيلة، ملطخة دائماً، جففتها مسحوق الكربون. كيف تُصافح كفاً رخصّة على حدّ تعبير السيد امرئ القيس. ذهب إلى ملك الروم يحاول ملكاً، أو يموت فيعذر. فمات ولم يعذر. فوّت الفرصة، مثلما فوّتها أنا. لو استوقفتها، ونطقت بضع كلمات. أحاول تكوين علاقة. سأموت ولن أعذر.. فاعذرنى ولا تلمني.. لا لوم.. (لا خيل عندك تهديها ولا مال). وقال الشطر الأخير بهمس أشبه بالكلام المسموع: (فليسعد النطق إن لم يسعد الحال). ونظرت العيون إليه، ثم تحولت إلى الباب، حين دخل السيد هاشم يحمل إضبارة زرقاء. وضعها على منضدته، واسترخى على مقعده.

- نبأ سار.

- زيادة؟ علاوة؟!!

- لا تحلم أحلاماً صبيانية، يا سيد كاظم.

- ماذا إذا؟

- الزيادة، ستكون بعد ذلك. فلا تتعجلوا الأمور. المطلوب منا الآن أن نقوم بفعاليات.

صممت آخر طباعة.. الطباعة العجوز. سأل السيد عبد اللطيف، وهو أحد أقرباء السيد هاشم:

- أي نوع من الفعاليات؟

- كل أنواع الفعاليات.. فرقة لكرة القدم، للسلة، للتمثيل.. المهم حشد المواهب وتجميعها في إطار عام.

قال السيد كاظم.

- وفرقة للإنشاد؟

- وهذه أيضاً.

قال السيد مطر:

- هذه الأعمال ضمن الراتب، أم فيها مخصصات؟

- هي بحد ذاتها راتب شرف - قال السيد هاشم بفخر - أليس مكافأة أن ننفذ عنها غبار الكسل؟!

- أين هذا السيد المحترم الكسل؟ أيدينا تنن من القرع.

- أنتم لا تشغلون غير جزء ضئيل من كيانكم.. أصابعكم أدامها الله ذخراً لنا. فماذا لو شغلنا كل كيانكم؟ تلك هي فلسفة الفعاليات.

قال السيد عبد اللطيف بهمة محسودة:

- أنا على استعداد. فقد سبق أن اشتغلت في المدرسة المتوسطة حارس مرمي. ولكن قبل أن ينمو لي هذا الكرش اللعين.

وأشار إلى بطنه المندلِق حتى حافة المنضدة.

- سيذوب بعد قفزتين أو ثلاث.

قال السيد مطر متبرعاً:

- وأنا أيضاً، ربما أصلح للتمثيل. فقد كنت أقدّم المعلمين واحداً واحداً. ومرة كنت أمثّل مدرّس العربية، وأخذتني الحماسة واندمجت في الدور. والتلاميذ ساهمون. ولم أفق إلا بعد ضربة على القفا. لقد كان المعلم يشهد المسرحية من أولها إلى آخرها. وطردي شر طردة. ولم أعد إلى الصف إلا بعد أن قطعت عهداً على ألا أعود إلى التمثيل.. على الأقل تمثيل المعلمين.

قال السيد كاظم:

- أما أنا فسأنضم إلى فرقة الإنشاد. فلا بد أن صوتي القبيح سيضيع بين الأصوات الضخمة.

قال السيد هاشم:

- كلنا أصحاب مواهب مقبورة. إلا أنها تحتاج إلى رعاية.

قال السيد مطر:

- بقي عندنا السيد معروف.

نعم، إنه موهبة مقبورة أخرى.

تبرع السيد عبد اللطيف ليقول:

- حسناً، ماذا ستفعل، يا سيد معروف؟

- أنا لا أشارك في شيء. لست موهبة مقبورة أو غير مقبورة. أنا مجرد آلة طابعة.
- لا، يجب أن تشارك.
- لا أريد الاشتراك.
- الاشتراك إلزامي.
- ومن قال هذا؟!!
- المدير العام.
- صمت السيد معروف، ثم قال في ضيق:
- أنا لا أتدخل في شيء، ولا أصلح لشيء.
- قال السيد كاظم:
- ولكنك صلحت لتأليف مقالة.
- تافهة لم تصلح للنشر.. لا، لا.. أنا لا أصلح لشيء.
- قانونياً لا يجوز.
- رجعنا إلى القانون؟ كيف ذلك يا سيد هاشم؟!!
- سأثبت لك ذلك. كل واحد منا ثروة وطنية، حقل نفط غير مستغل. فهل يجوز التفريط به وعدم حفره؟
- نعم، نعم.. يجب أن يدرك السيد معروف شيئاً.. نفطاً أو غازاً طبيعياً. سنتحمل الرائحة، على أي حال، في سبيل المصلحة العامة.
- أنا أرض جديباء.. صحراء.
- الصحراء الآن أثن من الأرض الخصبة.
- أنا الربع الخالي.
- ضحكوا. وقال السيد عبد اللطيف:
- ومن قال لك: لا يوجد نفط في الربع الخالي؟ جزيرتنا العربية سفينة عائمة على نفط.
- حسناً. أنا حقل نفط ناضب.. جاف.
- لا، لا يمكن.. يجب أن نتأكد من ذلك.
- وأخذوا يحاصرونه. تركهم يثرثرون. دقت أصابعه أغنية حزينة فاترة، على قانونه القديم.. قانوننا وقانونكم. لا، لا أريد.. طوال حياتي سارح، مستقل بذاتي، لا أتدخل في شيء، ولا يعنيني شيء.. سوى أن أراقب الغروب، وأرى ما يحمل إلي.. ابتسامة حلوة. وعينان حدوبتان. لا، لا أريد. متى سينتهي الدوام؟ سأتمشي في العصر على شاطئ النهر. ربما ستخطر على الشاطئ. لي موعد معها، ضربه لي القدر. ابتسامة حلوة وعينان حدوبتان. أنا ثروة وطنية متجولة.. لست ملك نفسي. ماذا لو قالوا لأمي المحروسة: إن ابنك حقل نفط، ويجب

أن تنتزعه الحكومة منك ليصدر الغاز الطبيعي إلى الخارج؟! ستقول: في طفولته سرقت له رغيفين من خبز الجيران لأطعمه حتى لا يموت جوعاً. والآن ترى دون أن تنتزعوه مني؟! لا، سأخرج صائحة. سأشقى هدمي.. سأرمي نفسي عن السطح.. إلى غير ذلك من وسائل الانتحار الشعبية.

وسمع أحدهم يقول:

- ستكون هناك فرصة للتعرف على شريكة حياته.

- ذات الوجه القبيح في المحاسبة؟

- ثروة وطنية أخرى.

- موهبة مقبورة.

- قل مطمورة.. المعادن المطمورة.. المواهب المطمورة.

- لسانك سيوقعك تحت طائلة القانون، يا سيد كاظم.

- حتى لسانني بخلت عليّ به، واللسان أنشط عضو فينا؟ الله أكبر.

وكان السيد معروف يقول لنفسه: والأحلام نشاط أيضاً.. لها لسان لا يسمع له صوت، ولا يضار به أحد. نشاط كنبساط القلب، لا يهدأ في ليل أو نهار، ولا يكف لدي مزاولتك أي عمل آخر. ومثل دقات القلب لا يخضع لسيطرتك.. أو ربما ينشط حين يزيد الأريادين.. أو الأريالين.. لا أعرف.. شيء على وزن طور سنين يزيد في الدم، يفور، ويغلي، يبرد، يتتلج، يجمد، وتكون النهاية.. يتوقف القلب والدم والأحلام وسائر النشاطات الأخرى.. سكوت، فراغ.. وحشة.

- سيد معروف، المميز يدعوك.

توقف نشاط السيد معروف الداخلي. ذهول خرج منه السيد معروف ليرى فراش المميز أمام طاولته. كتلة ثقيلة تتحرك خارج حدود نشاطه. تلفت فيما حوله. كانت عينا السيد هاشم تنظران إليه بنفس الابتسامة الخبيثة. لا حلاوة فيها، ولا حنية.. افتراس. وقال السيد مطر:

- لا بد أنه سيناقشه في مسألة الفعاليات.

- من يخالف القانون يحاسب.

- أو ربما سيناقشه في مسألة زواجه المتأخر، ولا سيما أنّ الفرصة سانحة. إذا تزوجت امرأة تشتغل بالمحاسبة نظمت حياتك كالمسطرة.

دق السيد معروف الباب بقلب واجف.. أدرنالين.. وصدرت (ادخل) غامضة مكورة، مثل كلمة تقال في الحلم. فتح الباب، ورأى الأستاذ المميز. صلته اللامعة، بالأحرى، نظارته السمكية، قذاله الأشيب، الناتي فوق أذنه الكبيرة، صفحة خده العريضة المتضرسة، مثل رغيف خبز على وشك أن يحترق من كثرة ما بقي في تنور الوظيفة. اعوجاج رقبته الغليظة. شعاع مصباح الطاولة المؤطر لوجهه كله. كان الأستاذ المميز يكتب ببطء قاتل، ويخط ثقيل، وكأنما يتهجي الكلمة تهجياً. وهي عادة لاحظها فيه السيد معروف منذ أول اشتغاله معه ككاتب تحرير. وقف ينظر إليه صامتاً، فقد خشي أن يتكلم فيخرج صوته متحشرجاً، غير طبيعي، قبيحاً في صمت الغرفة شبه المظلمة. بعد دهر من الانتظار حرر الأستاذ المميز القلم من بين أصابعه الغليظة التي كانت تصلح لكل شيء إلا للكتابة، وألقاه على الورق الأبيض. لم يلتفت إلى السيد معروف مباشرة، بل صوب عدستى عينيه إلى الحائط المقابل لحظات، وكأنما يفكر في مسألة عويصة لا يعرف كيف يخرج منها... ودون أن ينظر إليه، أشار إلى مقعد وقال له:

- استرح!

فرك الأستاذ المميز صدغيه بأصبعيه الوسطي والإبهام، وكأنما ليتغلب على صداع كان يطوق رأسه، وفشل على ما يبدو، فرقع نظارته إلى جبهته، وفرك عينيه هذه المرة، وترك النظارة تهبط لتستقر في مكانها أمام عينيه. وعاجله بسؤال غريب:

- كيف أنت هذه الأيام؟

رفع السيد معروف صدره، وكأنه قد استفز. هل من المعقول أن الأستاذ المميز استدعاه ليسأل: كيف الصحة؟ وكيف الأحوال؟

- نحمده ونشكره ونسبحه بالآله.

- تعابيرك القاموسية.

- مذكورة بالقرآن الكريم.

- كنت أريد أن أسألك عن حياتك الخاصة.

- لا جديد فيها، يا أستاذ عبد الرحيم.

- غير معقول.

وتعجب السيد معروف في سره، كيف عرف أن شيئاً جديداً دخل في حياتي؟ ابتسامة حلوة، وعينان حدويتان؟ وقال السيد معروف منكرًا:

- أصدقك القول، يا أستاذ عبد الرحيم.. ربما ذلك غير معقول، ولكنه حقيقي.

- مع مَنْ تلتقى في هذه الأيام؟

- مع مَنْ؟ لا أحد، يا أستاذ عبد الرحيم.

وتكسرت نظرة السيد معروف مخذولة على زجاج نظارة المميز السميقة. تضاريس الوجه صلبة حادة خشنة تخفي تشككاً وصرامة، وتصل ما تقطع من تاريخ ملء بالمنغصات. والصمت يتضخم إلى شيء لا يحتمل، خشى السيد معروف أن ينفجر فقال مدارياً:

- هل أنت مغثوث من شيء، يا أستاذ عبد الرحيم؟

- لا، أبداً.

ولم تبعث لا النافية الطمأنينة في نفس السيد معروف، بل زرعت في ظهره برودة لا إرادية، وبددت في خياله كل أمل في ابتسامة حلوة، وعينين حدويتين.

- أما زلت متأثراً من (ثمي إلينا)؟

- حدقتك اللغوية لا تهمني. من يقرأ سبويه الآن؟

- وأنا أيضاً.

وضحك السيد معروف ضحكة باردة قطعها الأستاذ عبد الرحيم بجمله غامضة:

- ولكن المهم القصد والغاية.. الفكرة التي تسيطر على الدماغ وتدمره.
- لم تسيطر أي فكرة على دماغى.
- سيطرت، سيطرت.
- أي فكرة؟
- كنت تريد أن تغير لغة المكاتبات الرسمية.
- أبداً والله. ولكني كنت أحب أن ألقفها. وهذا أيضاً تبنت منه.. حتى الأخطاء النحوية لا يهمني أمرها الآن.
- أخطاء؟ هذه هي الفكرة المدمرة. كل الذين لا يعجبهم شيء، ويريدون رفضه أو تبديله قالوا إنه خطأ، ليأتوا بفكرة من عندياتهم.
- ولكن هناك أخطاء نحوية واضحة.
- لا يوجد خطأ نحوي واضح.. (...) هل هو خطأ واضح؟ قل لتفكر.
- (...) وبدأ السيد معروف يتراجع.
- أنا آسف، يا أستاذ عبد الرحيم.
- إذا جئت إلى المكاتبات الرسمية كأبسط مثال. منذ أن خلقت حتى الآن هي على حالها. يفهمها الناس، وتُسَيَّر فيها الأعمال، وتُحل المشكلات. فلماذا ندس أنوفنا فيها؟ لماذا ندمرها؟ وما الفائدة من فتح باب جديد من المتاعب؟
- أنا آسف.
- صمت الأستاذ عبد الرحيم، ولعبت يده بالأوراق.
- نعود مرة أخرى إلى علاقاتك.. جررتنا إلى موضوع آخر.
- أي علاقات، يا أستاذ عبد الرحيم؟
- علاقات، علاقات خافية علين ا.
- ليست لي علاقات، يا أستاذ، لا خافية ولا عننية.
- علاقات تغيّر تفكيرك.
- وقال السيد معروف في سره: موفق.. هل يقصد موفق؟ هل كان ورائي حين نبع موفق من جحر الليل؟ وأحس بضيق شديد، وركبه شيطان العناد، مثلما يركبه في كل موقف من مثل هذه المواقف، وسيطر على لسانه، وأجري عليه جُملاً شيطانية فالتة: قال بعد صمت:
- أعترف لك، يا أستاذ عبد الرحيم.. عندي علاقة قوية..
- أها.. شفت؟ مع مَنْ لو سمحت وتفضلت.
- مع الغروب، يا أستاذ عبد الرحيم.

- مع مَنْ؟
- مع غروب الشمس.. في كل مساء تقريباً أراه من خلف زجاج مقهى جبهة النهر.
- هل أنت تهزل؟
- لا، والله. وليتك يا أستاذ عبد الرحيم ترى الغروب مرة واحدة، فستراه مرات.
- وهل تحسبني عاطلاً لا عمل لي؟
- ربما يهدى لك ابتسامة حلوة، وعينين حدويتين.
- ما هذا البطر؟
- أتحسبه بطراً، يا أستاذ عبد الرحيم؟ آه، لو رأيت ما رأيت البارحة؟
- ومن فرط ما كان يفيض في داخل السيد معروف من رقة وعذوبة وملانكية، خُيِّل إليه أن التضاريس على وجه الأستاذ عبد الرحيم قد تتلمت. أعله يبتسم، في داخله، لخفة روحه؟
- ماذا رأيت البارحة؟
- ابتسامة حلوة، وعينين حدويتين!
- هي التي لعبت بعقلك وحولت تفكيرك؟ لا تنس أنك موظف دولة.
- ارتد السيد معروف، وأرخي شيطان العناد سيطرته على لسانه.
- عقلي ليس كرة يُلعب بها.
- قال الأستاذ عبد الرحيم محتدًا:
- كرة أو دعبلة (كرة زجاجية يلعب بها الأطفال).. هذا لا يهمني.. ولكن يهمني التخريب الحاصل في تفكيرك.. من هذا الذي يخرّب تفكيرك؟
- لا أحد.
- أو بالأحرى.. هذا الذي يحول تفكيرك إلى جهة غير مأمونة.
- لا أحد.
- عندي شيء ملموس، مستمسك.
- وهل يلمس الخيال، يا أستاذ عبد الرحيم، ويتحول إلى واقع..؟ ليته. ولكن ذلك لا يحصل، للأسف الشديد..
- عندي مستمسك.. تعال.. اقترب.. ما هذا الذي كتبتّه في كتاب رسمي؟ الموضوع: تحويل تفكير.
- وأحس السيد معروف بأنه أشد حاجة إلى الكرسي الذي تهيب أن يقعد عليه، فإن رجليه بدأتا تسيحان. وسمع صوت الأستاذ عبد الرحيم يأتي إليه من كل جانب، ويطوقه، ويكاد يخنقه:

ابتسامه حلوة وعينين حدويتين. أين هي الابتسامه الحلوة والعينان الحدويتان؟ راحت تبخرت يا حادي عيسها وأحيني أوجد ميتاً قبيل أفقدها.. شش طر كاعة قفا قليلاً بها عليّ فلا أقل من نظرة أزودها ففي فؤاد المّجب نار جوي أحر نار الجحيم أبردها أششه باردة أستاذ عبدالرحيم، أنا مسكين عندي أم عجوز وأختان. موفق نعم موفق من أين عرف ذلك؟ يعرفون كل شيء.. كان يتبعني انشقت الظلمة عنه صندوق الليل تابوت الليل تبسمرت لا حيصة ولا بيصة انقبرت قبراً ينقبر فهو مقبور موهبة مقبورة أششه مطمورة وبين البطانية مستمسكات وهل يمسه الخيال أوى يمّه معدتي على بختك معدتي تلويني.. ألعن أبو معدتي يابو إلهي سواها معدة لا تفكر بها جاي ماي حليب جبن واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة الساعة خمسة دقت الساعة خمس دقات العصر جاي الغروب متى سادفاً أريد أن أذهب أتمشي على الشاطئ. الغروب في الساعة السادسة والدقيقة الثانية والعشرين، عظامي آخ عظامي نخرة والله العظيم عبد الرحيم لا يعرف هذه الكلمة ابتسامه حلوة وعينان حدويتان سيحذفها من أيّ كتاب رسمي أوف برد أحس عظامي نخرة ثقل يسحقتي ها حطت مرهونة بطانية عليّ وأنا لا أدري بطانية ولحافاً. أبتنت الدهر عندي كل بنت فكيف وصلت من بين البطانية واللحاف؟! كأنني وقعت في السطح تدعلت الدعل بيض الضفدع دعل الخزاعي.. لو كنت من مازن لم تستبح إبلي بنو اللقيطة من ذهل بن شيبان إذن لقاموا لم يقوموا قاموا لم يقوموا.. سأقوم أنا حان وقت اللقاء ابتسامه حلوة وعينان حدويتان أحسها في فؤادي. أسف يا أنسة ما اسمك؟ صبيحة مليحة سلوي نجوي ليلي، ليلي المريضة في العراق أنا المريض في الفراش مريض مريض مريض..

فتحت مرهونة الباب، وأطّلت عليه:

- معروف، هل صحت عليّ؟

- لا.

- ما زالت الباردة لازمتك؟

- أحسن، أخف.. أحر نار الجحيم أبردها..

- يا جحيم؟

- اسكتي.. أغلقت الباب.. لا تقولي لأمي.

ست دقات.. السادسة. الغروب الغروب يا ناس الغروب صبيحة على الشاطئ الشمس تتمشي على صفحة النهار ذكاء قلق المليحة هي مسك هتكها ومسيرها في الليل وهي ذكاء أسفي على أسفي.. لست الآن على الشاطئ حرارة عرق غزير أزاح الدثار الأول. رفس الدثار الثاني. سكبت البرداء ماء وجهها على جسده. اللزوجة تلتصق دشداشته على ظهره وصدرة. اختناق. ضيق أنفاس. ربما يستطيع أن يلحق بالغروب. ودّ لو تكون له جناحان. يا ريتني طير، وأطير حواليك. لو خفّ رجله، وانسل من البيت وذهب إلى هناك. ابتسامه حلوة، وعينان حدويتان. وقف أمام المرأة. رأى وجهه مظلاً. دهليز مظلم تحت ذقنه فرع لمرآه. رقبته الطويلة ازدادت طولاً. غوران تحت وجنتيه. هل من المعقول أنه كان بهذا الشكل الممسوخ البارحة، حين استقبلته ابتسامه حلوة، وعينان حدويتان؟ ماذا ستقول عنه الآنسة (س)؟ لا، لا، لن أذهب. لا أقطع خيط الأمل. عاد إلى سريرته، وانسلّ فيه. أي حظ تعيش حظه؟ لو يذهب إليها اليوم، اليوم فقط، ليؤكد لها أنه لاحظ ابتسامتها. ولا بأس إذا تغيب غداً وبعد غد. لو يثبت لها أنه التقط اللفتة، وعرف المقصود.. اليوم، اليوم هو الشاهد الوحيد على وفاته. أي حظ عاثر حظه. يتمرض في أمسية الوفاء هذه. ستسناه غداً. ستقول إنه ليس ذكياً تكفيه الإشارة. ليس وفياً، ولا ذكياً، ولا محتاجاً إلى ابتسامه حلوة وعينين حدويتين. تنصل منذ اليوم الأول. ذهب ولم يعد. ربما هو متزوج، وله خمسة أولاد.. لا، والله، يا أنسة.. أريد أن أثبت لها ذلك.. أريد.. ودفع الغطاء ثانية، وعكف ساقه، وهم بالنزول حين سمع دقات الساعة.. واحد، اثنين، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة. الغروب غادر المدينة، واتجه صوب الصحراء. ربما هو على أبواب دمشق الآن. يعسجد مسجدها الأموى، وبعد ذلك ينحدر إلى جبال لبنان.. قبرص.. صقلية.. مالطة.. كورسيكا.. إخوان كورسيكا.. جبل طارق.. البحر من ورائكم، والليل أمامكم، وليس لكم والله إلا الأرق والتفكير. تحويل اسكت حولت فكرك وكفي. الإنسان يحول فكره مرة وبعدها فلاة إلى غير اللقاء ثجاب. لماذا هذه العداوة، يا أستاذ عبد الرحيم؟ هل كفرت حين شطبت على (نحيطكم علماً) أيام كنت أجلس على منضدة السيد هاشم؟ هل ترنذقت حين أدخلت في كتاب رسمي (نميّ إلينا)؟ وما ذاك إلا أن أدلّ عوازلي على أن رأبي في هواك صواب..

- معروف، هل أصبُ العشاء.

- بعد شويه.

- هدأت معدتك؟

- تقريباً.. لا أظن..

لا أظنه متأثراً من ذلك راحت تتخبل على التلفزيون مستمسك جرمي ربما رأيت ابتسامة حلوة وعينين حدويتين تمشت على الشاطئ وطوقته بعينيها لم تأت للعشاء حتى الآن سحر هذا التلفزيون سحر أعوذ

بالله من الشيطان ليلة نابغية وليل كموج البحر أرخي سدوله ماذا يبئلي الله لو تسمع هي واحد اثنين ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة ثمانية تسعة أنشفت عرقى وأخرج، صرت زين.

نهض من السرير. صفا وجهه قليلاً من بعض الظلال، حين أضاء المصباح الكهربائي. الرقبة لامعة والجبين والأنف. مسح العرق. لا بأس. لست أحول ولا أعور ولا أخشم ولا أشرم ولا مجرور الأذنين. ولكن هذا التعب الطاغى، وتفكك المفصل ألجأه إلى السرير ثانية. فكر في أن يأكل لقمة. أرجأها بعد الاستراحة. وتشاءب، وطوي ذراعيه على صدره، وغفا. أيقظته دقات الساعة في الليل مرتين. بدت له مثل دقات على آلة طابعة. كرهها، ولم يرد أن يعدها. نوم منقطع يغرق في لجته، ثم يفيق. أحلام مجزأة، هي نتف من واقع اليوم البارح. في آخرها أطل الأستاذ عبد الرحيم على رأسه يحمل أوراقاً. استيقظ السيد معروف. واستغفر له، ونهض من سريره، وخرج يستنشق الهواء في الحوش. كان رماد الفجر يحل عين الحوش العوراء. رأى أمامه المغسلة التي اشتراها قبل شهر تلوح بيضاء عند الحنفية، وسخان الماء بشريطه الأزرق ينتصب كقالب كبير من الثلج. وساعة الليوان (الإيوان) تقترب من السادسة. وفي الغرفة المقابلة رأى أمه جالسة على سريرها، منكورة، معزولة، مهجورة، تشد فوطتها البيضاء بيدين عمشواوين. أحس بإشفاق موجع نحوها، كأنما رآها على قارعة الطريق تستجدي عطف الناس. دخل الغرفة، وصبَّحها بالخير. رفعت رأسها نحو مصدر الصوت، ومدت يدها إلى أمام تريد أن تمسه. - كيف أصبحت، يوم؟

- لم أنم الليل كله، أسمع دقات الساعة. لم تدق ست دقات بعد.

- على وشك. طلع النهار.

- يا ليتنى أرى النور.

سمع الشكوى للمرة الألف، ولكنه أحس بألم ممض للمرة الألف. فهذه المخلوقة العاجزة شبه العمياء هي التي ربته، وسرقت، في طفولته، رغيفين لتطعمه وأختيه. لقد رأى ذلك رأى العين وانغرز في الأعماق القصوي من ذاكرته كشوكة تدميه.

- كيف نمت؟

شكر مرهونة في سره لأنها لم تخبرها بما حلَّ به.

- جنت من الدائرة تعبان، فنمت كالحجارة.

- نوم العافية. لم تحس حين جاءت محبوبة.

- لا، متى جاءت؟

- بعد أن دقت الساعة عشر دقات بوقت طويل.

- كل ذلك في بيت الجيران.

- بيت الجيران!.. سحر! أختك مسحورة.
- سأخذ سلفة من الدائرة، وأشتري تلفزيوناً بالتقسيط. إذا كانت مسحورة بالتلفزيون بهذا الشكل.
- مسحورة، ولكن لا بالتلفزيون.
- ماذا تقولين؟
- أختك عاشقة.
- وناحت بغموض وأسى كذلك الغموض والأسى اللذين يلفان قسما وجها المظلمة المسوحة، المنطوية على أسرار حياتها.
- ومن هذا الذي تحبه؟ أتعرفين؟
- أعرفه، وأنت تعرفه.. ولكن لا أريد أن أعثك.. يدك حارة.
- وكانت يدها قد دبّت حتى صعدت على يده، في محاولة يائسة لإيجاد نصير. أم لعلها تشعر بالذنب في هذا الأمر؟ تذكرت وقارنت، ووخزها ضميرها، وامتأ صدرها باللوعة.
- من هو؟ قولى.
- فضيحة.
- من هو؟
- حتى الساعة التي كنت أنام فيها طارت منذ أن سمعت.
- لا تعذبينى! قولى.
- لا يخطر على بالك. من السايب أبو الطلاب في المحلة كلها؟
- ما هذا الذي تقولينه؟
- وكررت فمها، فخيّل إليه أنها ستنتطق باسمه في اللحظة التالية، تحركت سورة غيظ في أعماقه. فأوقفها بأن وضع يده على فمها:
- لا تذكرى اسمه.. عرفته.. لا حاجة!
- وتلفت، وكأنما يخشى أن تكون مرهونة أو حتى محبوبية تسمع همسهما. كان الظلام الشاحب في الحوش قد كشف، وخلف وراءه زرقة فضية كدرة. نهض من جلسته غير المريحة على حافة السرير، ففرقت فقرات ظهره. عرج في الخطوة الأولى. أجال بصره فيما حوله. وقال في نفسه: (أين الشروق الذي يريدنى موفق أن أراه؟.. ربما هو في بيت الجيران..؟ بيت الجيران، بيت الجيران.. محبوبية تحب. ومن؟ أبو الطبول! راح يدق لي طبولاً.. يا ساتر.. يا رب.
- قضى حاجته بعسر شديد. ثم ذهب ليغسل يديه في المغسلة الجديدة. وكان انسكاب الماء على وجهه مريحاً ومنبهاً جعل فكره في يقظة تامة. آمن كلياً بمقدم نهار جديد. لو كانت القصة قصة تلفزيون استدان، واشترى، وحلّ العقدة. ولكن عقدة محبوبية (...). مشكلة أخرى. مُستمسك آخر. كلها منك، يا أستاذ رحيم.
- هتف بالجملة الأخيرة في ضيق. جاءت مرهونة راکضة.

- صحت عليّ معروف؟

- لا، كنت أتحدث مع نفسي. أستعيز من الشيطان بالرحمن.

هل سبق لك يا أنسة مرهونة أن تحدثت إلى نفسك؟ هل سبق أن ضبطوا عليك مُستمسكاً جُرمياً؟ قصة تلفزيون.. غروباً.. ابتسامة حلوة وعينين حدويتين؟ لا، أبداً أبداً؟ لا يخلو أي إنسان من مستمسك جرمي؟ قادر، يا شيخ عبد القادر! هذا مستمسك الجرمي.. صينية مسودة الحواشي، عليها صحن جبن منقوع وإستكان (كأس صغيرة لشرب الشاي) شاي يعدل الدماغ. يجعل الإنسان يفكر. لا، خطر! من الصبح!

- البارحة جاء صاحب الحوش، فخفت أن أوقظك. قلت له إنني محموم.

- جاء أبو صريح العبارة ليأخذ زيادة جديدة؟

- لا، يقول إس إس.. ملاك.

تعذر عليها أن تنطق بالكلمة، فساعدتها معروف على ذلك:

- استملاك! دعيه يستملكني أيضاً.. يستملكننا. والله لا أخرج من هذا البيت إلا على رؤوس الحراب!

نظرت إليه مشدوهة. لم تعرف على أي رؤوس سيخرج أخوها من البيت. ربما يريد أن يقول "رؤوس الحراب. فأخطأ، مثلما أخطأت هي في لفظة إس إس.. ملاك. حدس أخوها ما يجول في خاطرها، من نظرتها المشدوهة والارتخاء في وجهها المسحوب. قال يفسرها لها:

- يعني لن أخرج.. بالسكاكين ما أخرج. وأين نذهب؟.. في هذا البيت قضيت أكثر من عشرين سنة، وتدرجت بالإيجار من ثلاثة دنانير إلى خمسة وعشرين ديناراً. فماذا يريد حاج شكر؟

وبعملية ذهنية حاول أن يحسب عدد الكتب التي يطبعها الآن من نوع (كتابنا وكتابكم) ليسدد الإيجار الشهري لصاحب البيت، وتعذر عليه ذلك. فقال:

- خلاصتها.. كثيرة بموضوع تحويل تفكير أو بغيره.

قالت مرهونة متمنية:

- بلكت الله يحول فكره.

- لن يحوله. نتحول نحن ولا يتحول.

فهمت مرهونة (التحويل) بمعنى الانتقال إلى بيت آخر. رفضت رفضاً باتاً، وتساءلت ملتاعة:

- من يتحول في هذا اليوم الأسود؟!!

- نحاول ألا نتحول.

- التحويلة تكلف.. تهري الجلود.

- أحسنت، وتقولي الجيوب.. لأنها مهترنة من الأصل. وتأوه السيد معروف، وتأوهت أخته بالعدوي، أو التبعية، وكأنما تتأهب أمامها. تتأهب عمر..

- الخلاصة..

ونهض السيد معروف، وأمسك خاصرته، وقال متوجعاً كالمرأة: أوف، ظهري.. لا، لا بأس.

رقت في أنفه رائحة كاربون لا يعرف من أين جاءت. ذكرته بالساعة. وكانت قد دقت سبع دقائق. ولكن ذهنه كان مشغولاً فلم ينتبه إليها. استعجل. في الباص ذكرته الدفعات الآتية من الخلف بتعريف فعل (اندحس). لا وجود له في القاموس الذي يعتمد عليه. أساس البلاغة للزمخشري. ولكن المزيد من الأفعال كثير في اللغة العربية يجعلك تقول (اندحس) مثلما تقول انكسر. اندحس، يندحس، فهو مندحس. تأخر، يتأخر، فهو متأخر عشر دقائق على الدوام. كفي، يمكن القول. يا ربنا، نجنا من الدحس المفاجئ، الخلفي منه والجانبى. والأمامي مقبول. كفي، لا تسمم صباحك بحرب ضد اللامرنيات. دخل الدائرة. صباح الخير، صباح الخير. مرّ بقسم المحاسبة. هل يلقي نظرة؟ ابتسامه حلوة. لا، معلبة. ليس فيها شذوي الأصيل. ليست ممزوجة بطراوة النهر. وعدل عن الفكرة.

- صباح الخير.

- صباح الخير، آغاتي. اليوم متأخر، سيد معروف.

- بضع دقائق.

- هل ستحضر اجتماع لجنة النشر اليوم؟

- قلت لك البارحة أعفوني من اللجنة. ما عندي علاقة لا خفية، ولا علنية.

في الغرفة نقل (النافضة) بأصبعين من منضدته إلى منضدة أخرى قانلاً.

- نفاضتكم، يا سادة.

ضحكوا ضحكة جماعية.

- نرجو المَعذرة، نسيناها.

- وستسونها غداً أيضاً. أنا أعرف.

- لا نستطيع أن نكتب لك عهداً بذلك.

- أفهم. لا تعهد. الإنسان ميال للنسيان.

- أحسنت يا سيد معروف. لا فُضَ فوك. ابتسم السيد معروف لجملة السيد هاشم هذه. كلمة حق يراد بها باطل. تعبير بليغ يراد به معنى ميتذل. سامحك الله، أو قاتلكم الله. سيان عندي. ذهب الناس وبقي النسناس. لا تريدون أن تقدموا تعهداً. هذا طيب. ربما هذا من حقكم، أن تعيشوا بلا مُستمسك جرمي. قال السيد كاظم:

- ما معني: لا فُضَ فوك، يا سيد معروف؟

تلكاً السيد معروف بالرد، فتبرع السيد هاشم كاتب التحرير:

- الفوه يعني الفم. وفضّ معروف. فضّ غشاء البكارة.

رفع السيد معروف رأسه، وحاول أن يعترض، ولكن لم يجد ميلاً لاستخدام صوته. قال السيد مطر:

- هذا ما ندعوه إليه، أن يفض بكارة. ولكنه مؤمن بمبدأ الاكتفاء الذاتي إيماناً لا يتزعزع.

السيد عبد اللطيف:

- سيتزعزع حين يلقى نظرة في قسم المحاسبة.

السيد هاشم:

- القدر سيتكلف بالأمر.

- كل شيء قضاء وقدر.

قال السيد كاظم:

- لا تجوروا على السيد معروف. فالقضاء والقدر وحده جعله يعمل بيننا كاتب طابعة.

اهتلها السيد هاشم فرصة.

- وإلا لكان الآن في خدمة القانون محامياً يشار إليه بالبنان.

قال السيد عبد اللطيف:

- خفتم على فمه أو فيه من الفض، فاعتصم بجبل الصمت أو بجبل الصمت. لست أدري كيف يقولون.

السيد هاشم:

- سيسكت دهرًا، وينطق كفرًا!

السيد مطر:

- لماذا لا تستخدم لسانك، يا سيد معروف؟

- صحيح لماذا؟

قال السيد كاظم:

- حتى الدهر انتهى. الساعة تجاوزت الحادية عشرة. وأنت نفسك قد قلت: كل ساعة هنا تعادل دهرًا.

السيد هاشم:

- هل قال ذلك؟

- لا، لم يقله صراحة.

- لا فرق. نية الإجماع واضحة.

فتح الباب، وأطل فرأش المميز:

- سيد معروف، الأستاذ عبد الرحيم.

طارده كلمة السيد هاشم:

- سيتكلم هناك.

بالفعل كان السيد معروف مضطراً إلى أن يتكلم بعد أول جملة نطق بها الأستاذ عبد الرحيم. فاجأه بالسؤال:

- هل أنت مستعد لأن تعمل معي؟

ارتبك السيد معروف، وتحير وقال رأساً:

- ولكنني أعمل معك.

- أقصد تتعاون معي.

- وأتعاون. هل نحن أعداء، يا أستاذ عبد الرحيم؟

- في المدة الأخيرة، وبعد انتقالك إلى قسم الطباعة أعتقد أنك تنظر إلي نظرة عدائية.

- أبدأ، والله. سلمني أي عمل تجدني مخلصاً بأدائه، بحدود إمكانياتي طبعاً.

- ثم جاء العقل الباطن فكشف عن التحويل الحاصل في ذهنك.

- لا، والله. كما أنا.

- العقل الباطن، سيد معروف، ينطق بالمكنون.

- كان خطأ غير مقصود.

- ولكن لماذا هذا الخطأ بالذات؟ الموضوع: تحويل تفكير. ثم لماذا لم يتورط زملاؤك بما تورطت فيه؟ يعني توجد قاعدة، أساس. العقل الباطن سيد المحققين.

- كل عقلي في الظاهر، يا أستاذ عبد الرحيم.

- ثم هذه.. ماذا سميتها، ابتسامة بديعة؟ وتدعوني إلى أن أترك شغلي وأشهد الغروب. ماذا تسمى هذا؟

- صعب أن تفهمني، يا أستاذ.

ضحك الأستاذ، وقال يمط كلماته:

- لغز؟ حزورة؟ ربما، وأنا أدري. قد يكون هناك شيء غامض عليّ. ولكن هذا غير مأمون الجانب أيضاً. كل شيء يجب أن يكون واضحاً مكشوقاً، إذا كان ليس فيه ما يعيب أو يجرج أو يعرض لتهلكة أو سوء أو محذور.

- ليس فيّ عيب، يا أستاذ عبد الرحيم، لست أعرج ولا أهوج ولا مأفون العقل. أقسم لك بشرفي.

- أرجو ذلك.

- لم أتعدّ حدود القانون.

- أرجو ذلك. ولهذا عرضت عليك أن تتعاون معي بشكل أوثق.

- تأمر.

- أين مقالتك عن تاريخ النقل؟

- في البيت.

اجلبها لأضيف إليها، وأعدل بها، فتخرج شيئاً جديداً لا ينسب لك.

- منذ البداية، يا أستاذ عبد الرحيم، لم أرد أن تُنسب إليّ. كتبتهما للمصلحة العامة. فلتدبّل بأي توقيع.

- لطيف. تعجبني. ثم إن لي أفكاراً سطرتهها برؤوس أقلام، وليس لي الوقت الكافي لأكتبها بالصيغة النهائية. خذها معك، وابسطها على الورق.

وقدم له قصاصة صغيرة مكتوبة بخطه المفلطح الغليظ.

- بحدود كم صفحة تريدها؟

- بحجها... بحدود ست. سبع.

- تأمر.

- ونمقها باستشهاداتك.. أنت تعرف الأشياء من مظانها، كما يقولون.

- العفو، يا أستاذ عبد الرحيم، من مظانها، جمع مظنة، أي المرجع أو ما يظن أنه فيه.

- كلمة ثقيلة. لا يهم. هل اتفقنا؟

- اتفقنا.

- ولا حاجة إلى تحويل تفكير؟

- أقسم لك.

- لا حاجة إلى قسم. المستقبل يكشف كل قسم.

وعندما خرج السيد معروف من غرفة المميز، وجلس على منضدته، أحس بأنه أزاح عن كاهله ثقلًا. وقال لنفسه: لا بأس. وهل كنت أطمع بأن أكون كاتبًا، وتدركني حرفة الأدب المشؤومة؟ كُتّاب العربية الفطاحل كانوا يؤلفون الكتاب للكبار، فيمنحون مباحًا، ويتقنون شرًا لو كانوا يكتبونها بأسمانهم. والجاحظ طيب الله ثراه اتقي تنور الزيات برسالة موجهة مفاجئة، في الجد والهزل، ينفي عنه التهم الباطلة، ويفرق بينه وبين صاحب نعمته. أنت طويل وأنا قصير. أنت أصلع وأنا أنزع. أنت صاحب براذين وأنا صاحب حمير. أنت شاعر وأنا راوية. أنت ملك وأنا تابع. أنت مميز وأنا كاتب طابعة. ومن أنا بالمقارنة بالجاحظ؟! وهل أطمح طموحه؟ لا أريد إلا أن تعود طمأنينتي الأولى، وأستقبل الغروب كل يوم، وأفتش في الشاطئ عن ابتسامة حلوة، وعينين حدويتين. فإذا كنت تريد المقالة فخذها يا أسد، يا أستاذ الصنعة، صاحب الصلعة..

وسرته نتيجة التفكير، وأهدت له نفحة من الطمأنينة والأمان، وكأنما قرأ رسالة الجاحظ كلها في سره، الرسالة التي يحفظ مقاطع كبيرة منها، ويترنم بها في خلواته.. جعلتُ فداك، ليس من أجل اختياري النخل على الزرع أقصيتني، ولا على ميل إلى الصدقة دون إعطائي الخراج عاقبتني، ولا لبغضى دفع الإتاوة والرضا بالجزية حرمتني. لطيف يا أستاذ جاحظ.

فرك يديه بحيوية، واستقبل آله العجوز. وتراقصت أصابعه على مفاتيحها بمرح وخفة. وكانت عيناه كعدستي آلة تصوير جادتين مرهفتين تلتقطان ما سطر على الورق إلى يساره، فيخرج كلمات متناسقة قوية نظيفة، صالحة لتوقيع أصحاب النعمة.. ليس من أجل اختياري النخل على الزرع.. أقصيتني. أوه، كان يحس إحساس الحمامة الوديدة في عشها. ولما فتح الباب، وأطل فراش المدير العام، يدعوه إلى سيادته لم يساوره إلا أسف خفيف على أن يغادر دفع العش.. ليس من أجل اختياري.

- عجيبة غريبة.
- اليوم، لا يتعامل إلا مع الكبار.
- عاد إلى سابق مجده.
- تغمده الله في واسع جنانه.
- نفس الغرفة الأنيقة التي زارها مرتين، حين كان عضواً في لجنة النشر.
- تفضل استرح.
- أنا؟
- تلقت السيد معروف وراءه. رأى الأريكة المخملية الناعمة.
- نعم، ومن غيرك؟ - وقبل أن يدعه يجلس - الحقيقة أن مقالتك أعجبتني.
- انتفت عند السيد معروف أي رغبة في الجلوس.
- أي مقالة، يا سيدي؟
- هذه.
- ليست لدى أي مقالة، يا سيدي.
- عن تاريخ النقل.. نسيت؟ وجدتها مطمورة بين أوراق.
- مدَّ السيد معروف رقبته الطويلة مقوَّسة، وأطل على الأوراق الممدودة إليه. ارتبك، وشلَّ لسانه. نفس المقالة التي وعد بها الأستاذ عبد الرحيم. تمالك نفسه بعد لحظة ذهول، وهزَّ رأسه نافيًا.
- ليست هذه لي، يا سيدي.
- لمن إذًا؟
- للأستاذ عبد الرحيم.
- ولكنها بخطك.. أنا أعرفه.
- استنسختها فقط.
- نظر المدير العام إليه بعينين مستديرتين. ورأى السيد معروف فيهما استغرابًا وشكًا وضيقًا. وألقى المدير العام الأوراق أمامه، وتوجه إليه، ملقيًا ظهره على متكأ الكرسي.
- هل أنت تسخر مني؟
- معاذ الله، يا سيدي.
- ولم الإنكار إذًا؟

- قلت لكم الحقيقة، يا سيدي.
 - ولكن فيها تعابيرك.. أنا أعرفها.
 - ليس لي تعابير.. يا سيدي.
 - فيها روحك الدعائية التي لا تخلو من الذكاء.
 - لا، يا سيدي. ليست لي أي روح دعائية لا تخلو من ذكاء.
 - لا تنكر.
 - أقول الواقع.
 - أي واقع؟
 - هو أنني لا أملك أي روح، يا سيدي. ودع عنكم أن تكون دعائية لا تخلو من ذكاء.
 - اسكت.
 - تأمر.
 - لا يعجبني أن يكون لي مثل هذا الموظف.
 - أعتذر يا سيدي.
 - عم تعتذر؟
 - عن الإزعاج، يا سيدي.
 - عن أنك لا تملك أي روح؟
 - ربما أملك روحًا، ولكنها روح السيد معروف، كما يسمونني.
 - ماذا تريد أن تقول في ذلك؟
- كان همه في هذه اللحظة أن يتبأله وينقّر المدير العام منه في الحدود التي يتشكك فيها من أن تكون لهذا الإبله الواقف أمامه أي قدرة على تدبيج سطر واحد، ليقون بأن المقالة ليست له، بل للمميز.
- أردت أن أقول.. لست إلا نفسي.
 - نفسك، طبعًا، نفسك.
- ولكن الشيطان انزلق على لسانه من حيث لا يدري، فقال:
- أقصد لست ثروة.
 - ثروة؟
 - نعم ثروة مطمورة أو غير مطمورة.

- فتح المدير العام عينيه، وبحلق فيه.
- ماذا في ذهنك من أفكار فاسدة؟
- ليست لي أفكار على الإطلاق، فاسدة أو غير فاسدة.
- إذا، ما هذه المظمورة وغير المظمورة؟
- سمعتكم تستخدمون نفس الكلمة التي دار حولها الجدل عندنا في غرفة الطابعة.
- يعني؟
- صاح به المدير العام نافذ الصبر.
- لأنني يا سيدي... (بعد صمت) ولكن إذا كنت تتصورني حقل نפט، فأنا حقل ناضب، يا سيدي.
- هل أنت تسخر مني؟
- حاش لله. أنا رهن إشارتك وإشارة الأستاذ عبدالرحيم.. ولكني لست مستعداً لأن أصدّر إلى الخارج.
- ما هذه التصورات الشريرة؟ هل لعب أحد بعقلك؟
- لم يلعب يا سيدي. ليس عقلي..
- اسكت.
- تأمر، يا سيدي.
- بعد صمت:
- أنت تافه.
- ممكن، يا سيدي.
- ومشوش العقل.
- ممكن، يا سيدي، أقصد.. عقلي..
- فاسد.
- نعم، لا سيدي.
- هل أنت تمثل لعبة أمامي؟ دسيسة؟
- نعم، لا يا سيدي.
- لا تستخدم كلمة سيدي.
- تأمر، سيدي.

- أوه، أحمق، تافه.. اخرج.. عليك اللعنة.

خارج الغرفة كاد يتعثّر بالفرّاش.

- هل أعادوك للجنة؟

- نعم، لا يا سيدي.

عاد إلى وكره.. وكر الصقور. صفرت الأصوات وراء طبلة أذنه.

- محمّر مصفرّ.

- مخطوف مكسوف.

- تلقي إنذاراً نهائياً.

- وما الحاجة إلى إنذار نهائي؟

- هناك أناس لا يستجيبون إلا للإنذار النهائي.

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

حاول استخدام أصابعه. لم تطاوعه. كانت تدق دقاتها الخاصة، على مفاتيحها العصبية. أخفاها في بنطلونه، كأنما يتبرأ من العملية السرية التي كانت تقوم بها خارج إرادته. أعماقه ترتجف. دربزة. نوبة غير متوقعة. كل شيء تجاوز حده انقلب إلى ضده. كنت أريد أن أقول شيئاً ما، لا أعرف ما هو. ولكنه

يملاً صدرى، ويتلجلج في لساني خاننى التعبير، وبحضرة المدير. الله أكبر. ربما حسيني بهلولا. لا، والله، ما أنا بهلول ولا مخبول ولا دقاق طبول. أريد أن أضع نفسي في موضعها. أين موضعها؟ لا أدري.. أخرج من مصيدة لأدخل في مصيدة. أوه، لماذا فعلت ذلك؟ كأن جنياً داخلي يورطني، ينطق بلسان غير لساني. مصيبة. ابتعدت عني الابتسامة الحلوة. فلاة إلى غير اللقاء تجاب. وفي النفس حاجات وفيك فطنة. سكوتى بيان عندها وخطاب. وما أنا بالباغى على الحب رشوة. ضعيف هوى يبغى عليه ثواب، هذا مستمسك آخر، يا جراب! وفي نهاية الدوام قال له السيد كاظم:

- سنخرج سوية.

أراد ذلك ولم يرد. خاف فلتة اللسان. سيلتزم الصمت، المطبق والمغلق. تركه يتكلم.

- سيد معروف، هل تريد نصيحة؟

يريد أم لا يريد. لا يعرف. وقف صامتاً حائراً، يردد في سره قول الجاحظ: (خيرتنى بين العمي والجهل، وما فيهما حظ لمختار).

- وإذا أردت، فماذا سنقول؟

- لم كل هذا العناء وتعذيب النفس؟

- صحيح. ما هذا الاستقصاء؟ وما هذا البلاء؟ وما هذا التتبع لغوامض المسألة، والتعرض لدقائق المكروه؟

- أحسنت. فأنت تعرف جوهر القضية.

مكتبة الملتقى

- لا، السيد الجاحظ يعرفها. هذا ما قاله في الجد والهزل.
- لا، أنا أقول لك جادًا.
- تفضل قل.
- لماذا لا تنضم إلى فرقة الإنشاد مثلي؟
- قرفعت عظام رقبته الطويلة حين التفت إلى محدثه بحدة. ولكنه لم يرد عليه. خشى أن يخونه لسانه. وعدّ السيد كاظم السكوت من الرضا، فطرح صيغته:
- ليس من الضروري أن ترفع صوتك. يمكنك أن تحرك شفّيتك فقط، بلا صوت، وتكسب الأجر. بل ويمكنك أن تنطق بأفكارك المختلفة عن أفكار الأغنية، ولكن على نمطها. مثلما تفعل أنت الآن. ربما تشتمني في سرّك، وتشك فيّ، وتعدّني معتوهاً. أفكارك الخاصة لك. احتفظ بها، ولكن لا تدعها تدور على لسانك.
- لسان الأفعي.
- أنا؟ أشكرك.
- لا، سيد كاظم، لساني.
- لسانك حصانك، إن صنته صانك.
- لينفك في الآخرة، حيث تواجه منكرًا وكبيرًا.
- فيك روح النكتة، يا سيد معروف.
- التفت إليه بحدة، وكأنما جُوبه بصفعة.
- مصيبة. أنت متوهم أو واهم.
- اعذرنى.
- هل تريد أن تدينني؟
- لا، أبدأ. أريد أن أساعدك. ألا تقبل المساعدة؟
- لا أدري، يا سيد كاظم، لا أدري. ربما خلقت مدائنًا. هل يصح ذلك بلغة القانون، كما يقول السيد هاشم؟ ربما يصح في بعض القوانين. ولكن للغروب قانونه الخاص أيضًا. يزرع الابتسامات الحلوة والعيون الحدوية في الشواطئ الفيحاء، ويورط البشر. يحول تفكيرهم، ويضع المستمسكات الجرمية في جيوب الآخرين.
- ها ها ها.. ألم أقل لك إنك صاحب نكتة؟
- لا، أبدأ. ولكن شر البلية ما يضحك، يا سيد كاظم، شر البلية ما يضحك.
- هزّ السيد كاظم رأسه مبتسمًا له بصفاء:
- أنت أديب مغمور.
- مغمور، مغمور، مقبور.. كلها تؤدي إلى الويل والثبور وعظائم الأمور.

ملتقى البحرين

<http://www.bahrainonline.org>

ابتسم السيد كاظم محرراً. قال يجاريه:

- لا بد أنك جوعان، وبطنك تقرقر. (...)

أدار السيد كاظم رأسه بحركة استغراب وإشفاق.

- غلبتني على أمري.

- غالب ومغلوب. أزم ومأزوم، منذ الخليقة إلى اليوم.

- أها. عرفت تفكيرك الآن.

- أبداً. لست أملك تفكيراً. والله العظيم لا أملك تفكيراً.. صدقتي.. مصيبة ألا تصدقتي.. مصيبة.

- موفق، يا سيد معروف.

- هل تُعدني موفقاً؟ لا، أبداً! بل ينطبق عليّ قول بعض العلماء حين سنل عن أسوأ الناس حالاً. فقال فلان القائل عند موته: دخلتها جاهلاً، وأقمت فيها حائراً، وأخرجت منها كارهاً. ويقصد الدنيا.

هز السيد كاظم رأسه حائراً أيضاً، وانصرف. وترك السيد معروف يحسّ كمن نطق بجملته ناقصة لا معنى لها، لا تشفي غليلاً، ولا تفي بغرض، مجرد آهة معلقة في هواء غرفة مخنوق. هل تمادي؟ هل قال غير ما يريد أن يقول؟ لا يعرف! ربما كان على خطأ في أنه لم يقل كلمة واحدة، لا سلباً ولا إيجاباً، عن عرض السيد كاظم بالانضمام إلى فرقة الإنشاد، بتلك الشروط السخية التي لم يشك السيد معروف في أنها من تأليف السيد كاظم وإخراجة. ما الذي يجعله يتكلم بهذا الشكل؟ ذلك الشيطان المرید الذي يطل على لسانه في تلك اللحظات الحرجة، ويطلق على لسانه جُملاً طائشة، مثل زفرات مخنوقة لا تنفس عن همّ يثقل على الصدر، ولكن تعلن عن وجوده المكلكل هناك. لماذا لا يتجاوب مع الدعوات الكاذبة بدعوات مثلها، ويترك ما في نفسه لنفسه، ما لقيصر لقيصر، وما لله لله؟ وقبل أن ينعطف إلى زقاق بيته رأى الحاج (شكر)، صاحب بيته، في انتظاره في بداية الزقاق.

- أهلاً، أبا صافي.

- بصريح العبارة، أنت تضطرنني إلى أن أجيء إليك كل يوم.

- آسف، أعتذر. كنت في الدائرة.

- وأنا تركت العلوّة (مكان للتجارة)، بصريح العبارة، ووقفت أنتظرك. لا أستطيع أن أتفاهم مع النسوان. وأمك عصبية، وأخاف أن ينزل الماء على عينيها فتعمي.

- شكراً على العواطف الكريمة. يا أبا صافي.

- قلت أنتظر (معروف)، لأننا نتفاهم أحسن.

- نتفاهم طبعاً.

- اسمع، يا سيد معروف! بصريح العبارة: هل رأيت أحداً يقبل بأذية نفسه، وببيده؟

- لا أظن.. ربما لا يوجد مثل هذا الأحمق في الدنيا.

- وتريد أن أكون مثل هذا الأحمق، بصريح العبارة؟

- أعوذ بالله، أستغفر الله.
- إذن، إلى متى أصبر على انخفاض إيجار هذا البيت الواسع؟ وحوله الأسعار تغلي وتفور؟
- ولكن راتبي، يا أبا صافي، لا يغلي ولا يفور.. بل ولا يحمي..
- هذا لا يهمني، بصريح العبارة. أريد حقي.
- حقك واطبت على استيفائه أجرًا متزايدًا منذ عشرين عامًا.
- لو أخذته، لما وقفت كالدليل على باب البيت. وعلى باب أي بيت؟ على باب بيتي الذي بنيته وعمّرته، بصريح العبارة.
- أنت بنيته، وأنا عمّره منذ عشرين عامًا.
- ولكنه من أصل الإيجار، بصريح العبارة.
- أضع أنا عشرين دينارًا، فتحسبها أنت دينارين.
- وإذا كنت تريد أن تزوجه أكثر من اللازم، بصريح العبارة.
- كنت أريد أن أخفي هرمه، بصريح العبارة، على حد قولك.
- اخرج منه إذا، أريد أن أستملكه لابني، بصريح العبارة.
- وأين أذهب أنا بصريح العبارة؟
- لا يهمني أين تذهب، بصريح العبارة.
- قصى لو اهتم كل واحد بهذا وذلك لما وجد وقتًا ليرفع لقمته إلى فمه، أو لما وجد هذه اللقمة أصلًا، بصريح العبارة!؟
- ستجد، ستجد، وأكثر من لقمة، بصريح العبارة.
- هل تضحك مني، بصريح العبارة.
- لا، أبدًا، بصريح العبارة.
- تحسبني مكديًا (متسولًا) بصريح العبارة.
- لا، أبدًا، بصريح العبارة.
- إذن اخرج بصريح العبارة.
- لا أظننى سأخرج بصريح العبارة.
- سأضطرك. ابني ساكن في بيت مؤجر، بصريح العبارة.
- حاول ذلك، بصريح العبارة.

- بصريح العبارة...

- بصريح العبارة...

- بصريح العبارة...

كان أحدهما يقاطع الآخر بصريح العبارة، واختنقا ولم يكمل الجملة، ولم يتفقا على شيء بصريح العبارة.

دخل السيد معروف بيته محنقاً مريد الوجه. فوقع بصره على وجه (محبوبة) الزاهي الذي بدا له منقطعاً عن دنياه، لا مبالياً، لا يحفل بالآلامه، ولا يتأثر بما يحمل من هموم، وجهاً يتألق بنور خفي، يرف فوق الظلام المكلل على البيت. ثبت معروف عينيه الملهتهتين فيه، وتزاحمت على لسانه بدايات لا عد لها من الحديث، كلها جارج متفجر فتاك بتلك الطمأنينة العجيبة المرتمية على إطباق الشفتين، ونضارة الخدين، وتوهج اللحظات. اختار السيد معروف أقلها إيلاًماً.

- ها؟ لم يبدأ التلفزيون بعد؟

- أي تلفزيون؟

سألت بسهوم خالي البال.

- تلفزيون الجيران. أصبحت من عشاق التلفزيون في آخر الزمان. وما حب الديار شغفن قلبي، ولكن حب من سكن الديار.

وخيل إلى السيد معروف أن ابتسامه من نوع عجيب التمتع على شفتي (محبوبة) أخته، وكأنها تعلن سموها عليه، وسخرتها منه، وانفصالها عنه. أشاحت عنه بوجهها حياء بدا له مفتعلاً أنانياً. وكأنما هو وسيلة أخرى للضحك منه، والترفع عنه. فأراد إيذاءها بسم لسانه:

- بدأت تبثين عن رجل؟ أي رجل يراك في الشارع أو في بيت الجيران.. حتى.. حتى.. أعوذ بالله.

وبدا له أنه رفع صوته في غيظ، وأن أمه المريضة ستسمعه وتعاتبه، وتقطع عليه حديثه الذي كان يود أن يأتي مفعوله، ويمزق، على الأقل، غلالة الطمأنينة الطفولية التي يتشج بها وجهها.

- تكلمي، انطقي.. صفك العباس (دعاء بإنزال المطر)

تغير شيء في وجهها. انعقد حاجباها. ولاح ظل من العناد القاسي والاستهانة في نظرة عينها السوداءوين المستديرتين، مثل عيون القطط. وازدادت انطباق شفيتها الممتلنتين، مما زاد من سورة الغضب في نفس السيد معروف، فلم يعد يحفل بمقدار ما يسبب لها من إيلام:

- أنا لا أسمح لك، لا أسمح لك بأن تعبثي بشرف العائلة، الشرف الذي حافظت عليه بالأم معدتي، وتقرح عيني.. لن أسمح لك.. سأقتلك.. وأقتل نفسي معك.

أضاف باستشهاد وكأنما وجد من الظلم أن يقتلها وحدها، وأنه في قتلها لها وحدها لا يقيم دليلاً على تضحية أو نكران ذات.

سمع صوت أمه يرتفع من غرفتها:

- (مرهونة)، هذا صوت معروف؟ ما يزال يتكلم مع صاحب البيت؟ أعطيني يدك.. سأخرج أنا له. التفت معروف فرأى ظل (مرهونة) وراء باب موارب، كانت تتنصت إذا. كان البيت كله ينصت.. أمه.. أخته.. والجيران.

لا بأس. لیسع العالم كلمته النهائية:

- إذا خرجت مرة أخرى من البيت كسرت رجلك.. ليس لنا في الدنيا غير الشرف، وتريدین أن تسلبیه منا؟ سقطت غلالة الطمانينة أخيراً، تلوت قسما ت وجهها، وانفجرت تبكى. بكت أمامه بحرقة مخذولة مهزومة مطعونة عاجزة عن الدفاع. وكأنما لتعلن براءتها مما اتهمها به، حتى إنه سرعان ما أشفق عليها، وراح يهدنها.

- اسكتي، اسكتي، البكاء لا يؤخر ولا يقدم.

أمه من غرفتها:

- (مرهونة)، هل معروف يتكلم مع (محبوبة)؟ معروف، لا تتكلم معها. أنا تكلمت اليوم. وعدتني. ووعد الحر دين.

وكانما وجدت محبوبة نفسها محاصرة، فاشتدت نوبة بكائها.

- وماذا عملت أنا؟ حرام عليكم، حرام... وفرت لانذة بغرفتها، وارتطمت في الباب بمرهونة التي كانت تنصت خلفه. وحدثت هززة وبدية وتلاطم وراء الباب. وعرف السيد معروف أن الأختين قد اشتبكنا هناك في مناوشة، وأن العراك الذي كان يتوقعه منذ زمان بين الأختين قد وقع الآن. وقف حائراً يستمع إلى المهاوشة تتوارد عليه من الباب الموارب، وراحت تختلط بالأنين والشهيق والزفير وتقطع الأنفاس في الصدور. وشعر السيد معروف بأن تاريخاً قديماً من المساءات والكبت والضيم، من الحرمان والمناكدة، والصبر على عجز الآخرين قد انفجر أمامه كالدملة المتقيحة. وقف حائراً لا يعرف ماذا يفعل، وإلى من ينحاز، حتى سمع صوت مرهونة المنتحب المتوسل العاجز:

- والنبي لم أفتن، والنبي لم أقل كلمة.

فأشفق على الكبرى، التعب في طريق المصير، وآلمه عجزها وهوانها وسوء طالعها، فصاح من مكانه:

- كفاية، محبوبة. سأدخل وأهري جلدك.. محبوبة، كفاية!

تسارعت الكركبة، وصدرت صيحة غامضة عنيفة، وانتهى الشجار بخسائر غير معروفة. وبقي صوت الأم يولول في الحجرة إلى يساره، يريد أن يضمن للألم حصتها من تسوية النزاع. خرجت مرهونة على صوتها محمرة مجزعة الوجه، منقوشة الشعر، عرقة الرقبة. ولأول مرة لمح السيد معروف في رقبتها طولاً يضارع طول رقبتها، صفة لعلها تنفث في هذه العائلة موروثة من أب عن جد. كأن الله لم يمن عليهم بالفقر وضيق ذات اليد فقط، بل شفعه بطول الرقبة أيضاً. شعر السيد معروف بأن ركبتيه توشكان أن تسيحا. فقد سرت فيهما رجة مفاجئة لا إرادية، خشى بعدها أن يسقط، فهرع إلى حجرته، وارتدى على سريره. سيمر غروب آخر دون أن يغمر روحه. ستطوف الابتسامة الحلوة والعينان الحدويتان على الشاطئ تفتش عنه ولا تراه. وانتفض مطعوناً. شعر بألم شديد في معدته يفوق الألم المعتاد الذي يحمله معه صباح مساء. كانت معدته تتلوي. شفرة. سن كافرة كانت تمزق لحمها. لا بد أنها فارغة، ولكن الطعام إذا سقط فيها الآن تحول إلى سم زعاف، صودا كاوية. احتضن السيد معروف معدته بيده، من تحت ثيابه، كما يحتضن كرشه، وأحس ببرودة يديه على لحم بطنه الساخن. ماذا يجري هناك تحت الجلد الأملط، واللحم المنخوب؟ ليته يأخذ معدته بين يديه ويتفلاها. يتفحصها مثلما يتفحص قميصاً ظل يستتر به أكثر من أربعين عاماً. لا بد أنه قد تهرأ الآن من كثرة اللبس، وتراكم الأوساخ، وترسب سموم الأطعمة الرخيصة، كم ثقب فيه الآن، كم قرحة، كم حز، كم تورم، كم بثرة! كان الألم يتوآفد عليه مثل موجات متزايدة ترتفع حذتها حتى تصل إلى الذروة، فيغمض عينيه، ويسترخى مستسلماً، وكأنما ينتظر ملك الموت. انحدر خط من العرق لجوج لاذع خلف أذنه، وساح على رقبتة ببطء. ظل السيد معروف يتتبع مساره بأعصابه طويلاً، فتجسم له طول الرقبة، فعجز عن تذكر الكلمات، ولكنه عرف المعنى: ليت لي رقبة الجمل لاتروي في الكلام قبل أن أطلقه من لساني. فهل طول رقبتة مقترن بفضيلة الصبر والتأني هذه؟ قد يكون له شيء من جلد الجمل وصبره على عطش الفيافي. ولكن تلك السورات التي ظلت تتفجر فجأة في أعماق قصوي مجهولة من غيب النفس، فتورطه. نعم، تورطه حقاً. وإن كان الإحساس بالتورط لا يلازمه طويلاً، وسرعان ما ينساه في كابوس ورطة أخرى جديدة. وعاد يتصور ذلك

الشیطان المرید الذی یسلبه لسانه، ویجرى علیه أشياء تسمى علاقته مع الأستاذ عبدالرحیم، والسید المدیر العام، والسید کاظم، والآن مع أخته. أشياء کان یجب أن تبقي فی خزانة عقله الباطن، كما یسمیه الأستاذ عبد الرحیم، وتستر علیه. وتجعله ینصرف إلى آلام معدته، متصیداً الابتسامات الحلوة فی بحر الغروب.. لا، لا ینطبق علیه قول الإمام علی فیما یخص طول الرقبة.. طول لا طائل من ورائه!

ظلت موجات الألم تتوالى خارج إرادته وسيطرته، تتبع من مصدر الزوبعة الملهب داخل معدته. قال لنفسه: ليلة نابغية أخرى. فبت كأي ساورتنى ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناعم. سم في المعدة، سم في الأمعاء، سم في الفكر، سم حتى مطلع الفجر. سيسمع دقائق أمه ساعة بعد أخرى في دريزتها المثيرة للأعصاب. هاله ما ينتظره من ظنوب الليل المشدود في الرواسى من همومه وأفكاره.. لا، لا.. لا أفكار.. يا سيد محتار! يجد رغبة في الذهاب إلى الشاطئ. فلا بد أن ألم المعدة قد رسم خارطته البشرية على وجهه، خارطة الشيطان، فأبي ابتسامه حوة تذوب أو لا تهرب من رؤية خارطة الشيطان على وجه إنسان؟! ولكن لا بد من اختصار الليل، وتقصير ساعات الاحتضار. قرر الذهاب إلى المقهى. سيستقبل الغروب من خلف الزجاج، وهو قاعد على كرسي مريح. فالجلوس يللم المعدة، ويطوي تقرحاتها وجراحها، ويسكن الألم. إلا أن الخطوات الأولى أنباته بأنه أمام ألم عنيد لا يقهر. كان سن الكافرة ينغرز في معدته مع كل خطوة ويمزقها. اتكا على الحائط مغالباً الألم، ورفع رأسه إلى فوق استغاثة إلى السماء، فرأى رقعة تعلن عن طبيب للأمراض الداخلية. علق بصره فيها باستشهاد. نوبات الألم تتوغى يمك بعضها برقاب بعض، فكأنها نوبة ألم واحدة. خيل للسيد معروف أنه لن يفيق منها. ودون تفكير صعد الدرج ساحباً ثقله بذراعه اليمنى المتشبثة بالمسند. بعد الفسحة قابله باب مفتوح يؤدي إلى عيادة طبيب. توقف أمامه متردداً. لا، لا ضرورة. ونقص يعقبيه، وكأنما أفاق من مشى في النوم. هؤلاء أكلو السحت، إخوان الجراثيم. لا حاجة إلى عرض الآسى على أناس غرباء مثلهم. وخيل إليه أن حدة الألم قد خفت. لا، لا ضرورة على الإطلاق. وهبط درجتين. وتقلقت معدته. وخزته سن الكافرة. عاد فارتقى الدرجتين ثانية. سؤال وجواب. وصفة لتسكين الألم وعسى أن تکرهوا شراً وهو خير لكم. قابلته فسحة عارية، خالية مثل قلب أم موسى. جشعون هؤلاء الأطباء. وأنانيون. من الخير أن أخرج إلى الشارع، وأستنشق الهواء، وسيزول الألم. أستقبل الغروب على كرسي وثير، أشعته الشفافة، فإنها أس تجس علياً. أوه، أنا عليل. أوه، وجع. لأسلم أمرى إلى الله. استقبلته عيادة الطبيب بباب نصف مغلق. سأضيق المشيتين. دفع الباب. كان الطبيب يجمع المجالات المتناثرة على الكراسى. تفضل. أهلاً وسهلاً. كنت سأذهب لزيارة مريض في بيته، ولكن نقلوه إلى المستشفى. ربما أنا هو ذلك المريض. العيادة فارغة؟ حقك. اليوم عطلتى الخاصة بدلاً من يوم الجمعة، المخصص للفقراء. وتفضل، تفضل. سأغسل يدي من الغبار.

كان الطبيب يتكلم وحده منفصلاً عنه، منحنيًا بقامته الطويلة المعوجة قليلاً، على الكراسى الجلدية المتربة المبعثرة، مزيلاً بطريقته العفوية هذه بقايا التردد في نفس السيد معروف. في الغرفة مكتب كبير عليه كتب ضخمة، وعلب أدوية ملونة، وسماعة، وبارومتر، ونفاضة خزفية ضخمة كتب عليها (زنزانو). وإلى اليسار دولاى زجاجى فيه تمثال من الجبس لإنسان مصغر يكشف عن بطنه وما فيها من معدة ومصارين، وفي الدولاى علب أدوية أخرى، وقوارير، وكف معروقة من الخزف اللامع. كل شيء يوحى بأن السيد معروف دخل العالم الشاذ الذي كان ينفر منه، وإذا دخل إليه مع أمه مضطراً تعجل الخروج منه. وردد في سره لازمته كلما يدخل العيادة. من حق الأطباء أن يكرهوا الأصحاء والموتى. فكلاهما خارج عالمهم الخاص.

جاء الطبيب يمسح يده بفوطة دمشقية زرقاء.

- نعم، تفضل. أنا كلي آذان الآن.

نظر السيد معروف إلى وجه الطبيب المستطيل القوي الفكين، ذي الجبهة العريضة السارحة، والأنف البارز، والتكشيرة الطبيعية الكاشفة عن أسنان كبيرة، والرقبة الطويلة الشبيهة برقبتة من حيث الطول، ولكنها أمتن وأقوى ككل شيء في صاحب التكشيرة الجالس أمامه ماذا ذراعيه قليلاً على المكتب، يلتهمه، دون كلفة، بعينيه الجسوريتين.

- دكتور، معدتى. تتمزق.. كأننى بلعت سناً كافرة.

- ها، ها، ها! لطيف. سن كافرة! تعبير موفق! ربما ما زالت سن الكافرة في الاستعمال اليوم. متى تحس بالألم عادة، قبل الأكل أو بعد الأكل؟

- قبل الأكل وبعد الأكل.

- هل له علاقة بما تتناوله من طعام؟

- لا، لا أظن.

- بالفرح والحزن؟

- لا أدري.. لا أظن أنني فرحت في حياتي فرحاً حقيقياً.. ربما..

- ربما، ماذا..؟

- لا شيء، تذكرت لحظة فرح خاطفة، أظنت عليّ.. ولكنها لحظة فرح عابرة لا يقاس عليها.

- هل خفّ الألم عند ذلك؟

- لا أدري.. كان تحولاً فكرياً أنساني نفسي.

- متى كان ذلك؟

أبطاً السيد معروف بالإجابة، وأطرق برأسه، ثم قال قبل أن يرفعه:

اعذرنى.. انس ما يخص التحول المزعوم.. زلة لسان.. كانت لحظة خاصة لا تكرر ولا يقاس عليها، فلا تبين عليها أحكاماً.. صحوة من الألم خاطفة. ولكن الألم في العادة يلازمي صباح مساء. يخف أحياناً، فأسهو عنه، وأغرق في آلام أخرى أشد لا تتعلق بمعدتي.

- اسمح لي: هل أنت تدخن، تشرب الخمر؟

رفع السيد معروف رأسه وقال بصراحة أمينة:

- جربت في الحقيقة. كان يعجبني أن أضيف إلى حياتي ما يجد فيه بعض الناس نشوة، أو ما يظنونهم نشوة. دخان السيارة كان يجعل معدتي تتقلب، كما تتقلب حمم داخل الأرض. أما الخمر فقد عاقرتها، كما يقولون مرة واحدة، ففعلت بي الأفاعيل، فأمنت بأبيات المتنبي.

- لطيف! ماذا يقول المتنبي؟ هل تحفظ الأبيات؟ أرجوك ربما أستفيد منها طيباً.

- أبيات لطيفة يقول فيها:

تهيج للقلب أشواقه

وجدت المدامة غلابة

- وللمعدة قروحها بالطبع.

ولكن تحسن أخلاقه

تسيء من المرء تأديبه

- يصير خشناً.. ولكنه أريحي

وذو اللب يكره إنفاقه

وأنفس ما للفتي لبه

- ومع ذلك فذوو الألباب الذين يكرهون إنفاقها في نقصان مع مرور الزمن.

- ربما ذلك داء العصر الذي نسمع عنه كثيراً.

- سنة التطور.

- والبيت الأخير هو الذي كرهني بها.

ولا يشتهي الموت من ذاقه

وقد مُتُّ أمسٍ بها موتة

- رائع وفلسفي. في الحقيقة الخمرة والتدخين من العوامل المساعدة. ولكن أمراض المعدة، بشكل عام، مرتبطة بالأعصاب تفضل، تمدد.

ولما انتهى من جس بطنه، وعرف مواقع الألم، سألته، وهو يتجه إلى المغسلة ليغسل يديه ثانية:

- عند مَنْ، كنت تعالج؟

تردد السيد معروف في الجواب. هل يقول له اسم الطبيب الذي يعالج أمه. ولكن ذلك مختص بأمراض القلب. كره التردد، وقال بصراحة:

- لم يكن لي ترف استشارة الطبيب.

- ها، تعتبرها ترفاً؟ من الكماليات كماء الكولونيا؟

وضحك الطبيب ضحكة صافية، وهو يمسح يديه بالفوطة ويتجه نحوه.

- أقصد الميزانية لا تساعد.

- نعم، الميزانية، بالضبط. والمصيبة أن العلل تلتصق بضعاف الميزانية.

خجل السيد معروف أن يكشف أوراقه، فلربما يتصور الطبيب أنه من مراجعي يوم الجمعة، وقد أخطأ اليوم، وجاء يستشيريه مجاناً.

قال مصححاً الانطباع:

- الحقيقة أن أمي تستهلك كل الفلوس التي يمكن أن تخصص لهذا الباب.

- مريضة مزمنة؟

- تقريباً.

- هناك أمراض يمكن أن تُعدها ملازمة للشيخوخة، ولكن لا توجد أمراض يحق لك أن تُعدها ملازمة للشباب. عدَّ السيد معروف الكلام موجهاً له، فقال:

- لست شائياً.
- وحتى الكهولة. لست أكبر سنّاً مني، كما أرى.
- الأعمار بيد الله.
- حكمة يرددها الناس تلقائياً. في الحقيقة إنهم ينسبون إلى الله مسائل تخص عجزهم. لم يرق للسيد معروف هذا المنوال من الحديث. قال بصراحة:
- هل هذه محاكمة أم جلسة سفسطائية؟
- نهايتها.
- وانكمش الطبيب في قوقعة رسمياته:
- الاسم الكريم؟
- معروف عامر الدواليبي.
- ماذا تشتغل، يا سيد معروف؟
- كاتب طابغة حالياً.
- حالياً؟ ماذا كنت تشتغل من قبل؟
- كاتب تحرير.
- ولماذا غيرت عملك الأصلي؟
- قضية طويلة.
- يخيل إليّ أن عملك لا يناسبك.. تبلع الكاربون. أليس كذلك؟
- ليس الكاربون وحده.
- آها. فهمت. غيره إذا.
- بسط السيد معروف ذراعيه ببداهة:
- ومن أين أعيش إذا؟
- أخرج الطبيب. عبث في السماعه. ونقل علبه دواء إلى موضع آخر.
- أحسنت. هذا سؤال مطروح منذ بدء الخليقة: من أين أعيش؟ - وأطرق الطبيب، وصمت مفكراً ثم قال -
يوسفنى أن الأطباء لا يستطيعون الإجابة عن ذلك. ولكن ألا توجد إمكانية للانتقال إلى عمل آخر؟
- لا، هذا آخر معقل.
- لطيف. فهمت.

- أرجو ألا تؤول الأحاديث.
- لا، قطعاً.. تريد أن تقول؟
- لا أريد أن أقول شيئاً. هذه هي المسألة. لا أريد أن أقول شيئاً. يحسبه الجاهل ما لم يعلم شيخاً على كرسيه معممًا. أبدأ، والله، أنا حاسر الرأس.
- هذا رأيك. من حقه أن تلبس عمامة ولا تلبسها.
- لا، ليس لي رأي.
- في أي شيء؟
- ألبتة، وعلى الإطلاق.
- حتى معدتك؟
- لعنها الله، وهل يهمها رأيي؟
- يهمها بالتأكيد.
- لو كان يهمها رأيي لسمحت لي بأن أتذوق أشياء كثيرة أحبها.
- معدتك تاريخك.
- تاريخي؟ وهل لي تاريخ؟ هل أنا محقق أم طبيب؟
- العفو، العفو. يمكنك أن تسكت، مثلما يمكنك أن تتكلم. لكن الكلام، بشكل عام، أروح من السكوت، من الناحية السايكولوجية، على الأقل. سكت السيد معروف قليلاً، ثم قال:
- ربما أنت محق. حين أنفَسَ عما في صدري أرى ابتسامات حلوة وعيوناً حدوبة. ولكن ذلك يحدث بشكل عفوى، ومفاجئ ويسبب لي مشكلات أنا في غنى عنها، فتتحول رؤياى إلى مستمسك جرمى.
- ها ها ها.. مستمسك جرمى.. لطيف، لطيف.
- وقد نُثرت حوالي مستمسكات جرمية كالألغام. هل قرأت كتاب (يوميات نائب في الأرياف)؟ يقول النائب إنه نصب مصادد الفئران حول سريره في الريف، كما تنصب الألغام الواقية حول سفينة من سفن الصليب الأحمر.. أنا أيضاً، ولكن لا أنصب ألغاماً واقية، بل ألغاماً ناسفة.
- هل تقرأ كتباً كثيرة؟
- سابقاً، قرأت الكثير.
- والآن؟
- لا.
- فقدت الرغبة؟
- في كل شيء.

- وهل ذلك بسبب وجع المعدة؟

- لا أعرف، ولكنني إنسان فقد الطموح منذ زمان.

- لماذا؟

- لا أدري. عندما كنت كاتب تحرير حاولت أن أفعل شيئاً صغيراً أقدر عليه، بنتيجة قراءاتي الكثيرة، وهو تشذيب لغة المكاتبات الرسمية. ولكنني صُدِّدْتُ أشنع صد، ونقلوني من كاتب تحرير إلى مجرد كاتب طباعة أقوم بعمل روتيني ممل.. وحتى هذا بدأ يتزعزع أمام عيني.

- سميته آخر معقل.

- نعم، نعم، آخر معقل.

- كيف تسميه إذاً، إذا كنت لا تستطيع أن تدافع عن نفسك؟

- أقصد آخر ملجأ، وبعده أرض الله الواسعة. الغروب. الشاطئ. والابتسامات الحلوة العابرة.

- لطيف. حدِّق السيد معروف في الطبيب أمامه، وقال:

- ها ها ها.. لطيف.

كان الطبيب يضحك ضحكات صافية رنانة خُيِّلَ للسيد معروف أنها نابغة من أعماق قصوي لا يستطيع النفاذ إليها. وكانت الابتسامة العريضة بعدها تُلوّن كل ملامح الطبيب البدوية الخشنة على ما فيها من طفولية وعذوبة وعفوية. عقد الطبيب ما بين حاجبيه، وسلَّط عليه ألق عينيه الـ الـ حدوبتين وقال وكأنه يبدأ بداية أخرى:

- كيف وجع معدتك الآن؟ سكت السيد معروف، وكأنه يبحث عن بقايا الألم الذي جاء إلى الطبيب بسببه.

- يبدو أنه خف.

- شفت؟ التنفيس نوع من العلاج الطبّي. ولكن من يسمع؟ ومن يقرأ؟

- ستعالجني بالتنفيس؟ ضحك الطبيب ضحكته الصافية.

- لا أنا أبحث عن الأوليات.

- لتصوغ المستمسك الجرمي؟

- هل يصح أن يُقال المستمسك الجرمي، بدلاً من ذلك؟ لقد هبطت عليّ، يا سيد معروف، خالي اليدين، لا كشوف ولا تحاليل، ولا تقارير عن تاريخ المرض. فكيف تريدني أن أتصرف؟ أصف لك مسكناً أو دواء يساعد على الهضم، وأدعك تنصرف؟ لا، لا أحب أن أفعل شيئاً من هذا مع أي شخص، لا سيما مع شخص مثلك. طبعاً، أنا لا أطمع في أن أحل مشكلتك الخاصة حلاً جذرياً، كما يقولون في هذه الأيام، وحتى حلاً شاملاً. يأتين إلى عيادتي المتواضعة هذه كثيرون من أمثال السيد معروف بمعد موجهة أو غيرها من أمراض الأعصاب المسحوقة والميزانيات الضعيفة. فأصف لهم هذا الدواء أو ذاك، ويفيدهم بدرجات متفاوتة. ولكن يبقي ما لا أستطيع تغييره بمفردي.

- الأسباب الموجبة؟

- لطيف! الأسباب الموجبة. أنت ذكي، ولا تخلو من روح النكتة.

- أرجوك.
- خفيف الظل، كما يقول أهل مصر.
- استعملت هذه الكلمة في إحدى المكاتبات الرسمية فرفضوها وقرعوني.
- ها ها ها، لطيف. ماذا كتبت؟
- كتبت: عربات الركوب الخفيفة الظل تزاحم باصاتنا في بعض الخطوط. فقد كانت تحمل الركاب بالنفقات .
اتهموني بمحاباة الجهة المزاحمة.
- ها ها ها، لطيف.
- لطف منك أن تصفني باللطف، يا دكتور.
- ألا تساعدك روح النكتة على مقارعة المنغصات؟
- بالعكس، تورطني.
- عند ثقال الظل؟
- ومن لا ظل له على الإطلاق.
- لطيف.
- أشكر حسن ظنك.
- المهم في مرض المعدة هو ألا تهون عزيمة المريض - قال الطبيب بجدية تامة - عزيمته في أن يجد في حياته ما يصرفه عن أوجاع المعدة.
- أين يجده، على الشاطئ؟
- الهواء الطلق مفيد أيضاً، والتمشي.
- ابتسامه حلوة، وعينان حدويتان؟
- ها ها ها. وهذه أيضاً كل ما يبعث على الارتياح وهدوء البال. العزيمة، يا سيد معروف، العزيمة. وإذا دُبلت هذه العزيمة أو نحلت دُبل الجسم كله، وتكالبت الأمراض عليه. روح المقاومة - وضمّ الطبيب قبضة يده، وأرسل ذراعه الضخمة إلى الأمام بحركة عناد - رمز العافية الروحية. والعافية الروحية تنعكس بالتأكيد على صحة البدن.
- العقل السليم في الجسم السليم؟
- بالتأكيد. ولم لا؟ روح المقاومة توفر المناعة حتى للأعضاء العليلة، فتقارع المرض؟!
- وتغلق الصيدليات. ألا يهاجمك أصحاب الصيدليات على بث روح المقاومة؟!
- هاجمني الأطباء، حين خصصت يوم الجمعة لمعالجة ذوى الدخل المحدود مجاناً.. نفس النظرية. قال السيد معروف ما كان يدور بخلده:

مكتبة الملتقى

- من حق الأطباء والصيادلة أن يكرهوا الأصحاء والموتي.
- ها ها ها. لطيف.
- مثلما من حق الأستاذ عبد الرحيم أن يكره القواعد والصراف.
- مَنْ الأستاذ عبد الرحيم هذا؟
- انتفض السيد معروف على هذا الاسم يتردد على لسان آخر. فقال مترجعاً:
- لا أدري. هل نطقت بهذا الاسم؟ العفو. كنت أهذى. انس الموضوع.
- حسناً. نسيته. اعتبره منسياً.
- ولكم في النسيان حياة يا ذوى الألباب.
- في القصاص، يا سيد معروف.
- المعنى في بطن الشاعر.. أقصد نسيان الآلام. وحتى الشدة نافعة أحياناً. اشتدى، أزمة، تنفرجى..

قد لفها الليل بسواق حُطَم
ولا بجزار على ظهر وَصَم

هذا أوان الشد فاشتدى زيم
ليس براعى إبل ولا غم

- من زيم هذه؟
- ناقة.. ولكن بيد سائق شديد المراس.
- إذا، ستفرج بالتأكيد.
- والألغام الناسفة؟
- العزيمة، العزيمة، يا سيد معروف.
- على رأسى. من أي صيدلية اشتريها؟
- شيء يُحضّر في مختبر النفس.
- ويصدر إلى الخارج؟
- لا يصدر.
- لا يباع ولا يشتري ولا يصدر؟ هذا أنا، إذا. شكراً، لك، يا دكتور. أهديتنى إلى طريق العزيمة، مهما تنطوى عليه من مستمسك جرمى، أو أي لغم من الألغام الناسفة.
- الأساس هو الثقة بالنفس.
- والعزيمة يمكن أن تُحضّر في مختبر ذوى الميزانيات الضعيفة أيضاً.

ملتقى البحرين

<http://www.bahrainonline.org>

- بالتأكيد.
- اسمح لي أن أقبلك.
- ها ها ها. تفضل. استفد من كل الإمكانيات المتوافرة لك. الحياة لا توهب إلا مرة واحدة...
- شكراً، يا سيد موفق.
- اسمي ظاهر توفيق.
- شكراً، يا دكتور ظاهر.
- لا شكر على واجب. ومنَ موفق هذا؟
- شخص من عباد الله.
- الصالحين أو غير الصالحين؟
- لا أدري حتى الآن. كم معاينتكم، يا دكتور ظاهر؟
- مع القبله أو بدونها؟
- بها أو بغيرها.
- لا شيء.. اعتبره حديثاً ودياً.
- وكيف أرد لك الفضل؟
- سلّم لي على موفق.
- أها شكراً. إن الطيور على أشكالها تقع.

شيعته ضحكة الطبيب الرنانة. هبط الدرج على عجل. تلفت قبل أن ينزل إلى الشارع. أعوج أعرج أهوج، بالمستمسكات الجرمية مدجج، يُهزَم ولا يجرج. ما هو؟ حظى الأفلج. أعوذ بالله، بصريح العبارة، أعوذ بالله. كأن الدكتور ظاهر توفيق أعد العدة، وشحذ اللسان لاستقبالي. وأنا، أيضاً، عفت جميع الأطباء، وطرقت بابه! وافق شنّ طبقه، تحب رجلي الفلقة، والليل يغزو ملقة. ويكفن شاطئ قلبي بالذنوب. وفي الماء عيون الذناب. وفي المعدة شفرة سكين، وفي القلب لوعة وحنين. أين أنت، يا ذات الابتسامة الحلوة والعينين الحدويتين؟ اليوم موعدكم فأين الموعد؟ هيهات ليس.. ماذا ليس؟ نسيت البيت. كهولة! كهول تساموا للعلا وشباب. مرة أخرى قافية المتنبي؟ ولكن يا سيد معروف، وفي الجسم نفس لا تشيب بشييه، ولو أنّ ما في الوجه منه حراب.. أوه، نعم، بلي.. كان المتنبي المنكود يقصدني مع ذات الابتسامة الحلوة والعينين الحدويتين، وللخود مني ساعة ثم بيننا فلاة إلى غير اللقاء تُجاب. ستسمع رسيس الحب في قلبي. انتهى. قضى الأمر، ولات حين رجوع! لقد تصبرت حتى لات مصطبر، فالآن أفحم حتى لات مقتحم. أين؟ ليس لي مقتحم غير المقهى. وأغلقت الأبواب وقالت هيت لك. استقر السيد معروف على مقعده في مقهاه. وتأوه ماسكاً معدته التي ما زالت تتمزق في جوفه. نسي حتى أن يسأل الدكتور طاهرا أن يعطيه مهدناً أو مهضماً أو أي شيء يجعله يفرغ معدته مزقاً دامية. ما أنت إلا معدة دميت، وفي سبيل الله ما لقيت. العزيمة، يا سيد معروف، العزيمة. فلم جيد من تمثيل السيدة فاطمة رشدي، أيام كان يغشي دور السينما، أيام كانت تتملكه الرغبة في الفرار من جلده، فيخرج إلى الشارع، ويصطدم بالروائح والصدور والأكتاف، ويشبع غباراً وزفرات وحسرات. ثم يعود إلى بيته مكللاً بخيبة الهزيمة، ويدفن رأسه بين دفتي كتاب، ويحلم بأشياء جديدة، مدن، جزر، بحار، حقانق، شعوب، عوالم فاتنة. العزيمة، يا سيد معروف، العزيمة. وإذا ذبلت، ذبل الجسم، وقصرت الرقبة الطويلة وانقصفت. الله يقصف ظهرك، يا أستاذ رحيم! ورطنتي! عفواً! هل نطقت بهذا الاسم؟

ابتسامه حلوة وعينان حدويتان. رهبان مدين والذين عهدتهم يكون من حذر العذاب قعوداً. لو يسمعون كما سمعت حديثها.. ماذا سمعت؟ لم أسمع شيئاً. مرت كالطيف. دون أن تنبس ببنت شفة. راح، حظى العاشر. زال. لاحقه الآن غبار تذروه الرياح؟ العزيمة، يا سيد معروف، العزيمة. شيء يحضر في مختبر النفس. تنور في جوفي وليس مختبراً. تنور الزيات. من زيات إلى وزير، إلى قاتل إلى قاتل. شكراً لك، يا دكتور طاهر. بثت في العزيمة، أو بالأحرى نيهتني إلى نفسي. الثقة بالنفس. لست أعور ولا أحول ولا أعرج ولا مشطور الشفتين. وأسود مشفره نصفه يقال له أنت بدر الدجي. والحياة، يا سيد معروف، توهب مرة واحدة. سمعت، بذلك، سمعت. بابتسامه حلوة وعينين حدويتين أو بغيرها وبخلافها. مع قبلة أو بغير قبلة، بأم عمياء مترملة، أو بأم مفتحة العينين يكلل عليها زوجها. بأخت أو بغير أخت، عانس أو متزوجة. تريدين رجلاً؟ لماذا لا تريد؟ من يدري ماذا في قلبها؟ ربما تحن إليه؟ إلى موفق. تقول بصريح العبارة أو بملتبس العبارة، أو بغير عبارة على الإطلاق: كسرتم رقيبتي. لماذا رفضت (موفق)، يا أمي؟ وهل أنا مذنبه لأن أحداً لم يأت لخطبة مرهونة؟ انتظري حتى تتزوج أختك الكبرى. ومتى تتزوج أختي الكبرى؟ يوم ينفخ في الصور؟ الشرف، يا محبوبه، الشرف. لا نملك في الدنيا غير الشرف، وتريدين أن تسليبيه منا؟ خطبة عصماء، بتراء. كيف أفلتت هذه الجملة مني؟ الشرف. ابتسامه حلوة، وعينان حدويتان. لن أنضم إلى فرقة الإنشاد، مهما كلف الأمر. وفي النفس حاجات، وفيك فطانة. أبداً، لا فطانة. سكوتى بيان عندها وخطاب. لا يريد السيد كاظم أي بيان. يمكنك أن تحرك شفتيك فقط، بلا صوت، وتكسب الأجرين. حتى شفتى لا يمكن أن تتحرك. يمكن أن تتحرك في البداية، ثم تشد عن السوط، أقصد عن الخط، أقصد.. لا أقصد شيئاً.. لا تتحرك، وكفى.. المؤمنين القتال.. قتال صامت أو صاخب، معلن أو غير معلن، خلف منضدة تحرر فيها الكتب المشذبة المنقحة، أو خلف آلة كاتبة قديمة تستنسخ الكتب الركيكة العبارة، الممسوخة المعاني والتعابير، بأخطاء نحوية أو غيرها. ما هذه العداوة، أستاذ عبدالرحيم، ما هذه العداوة؟ هل تعرف ما نسعى بلغة التراث: كتاب الدواوين؟ نعم، نحن كتاب الدواوين، يا أستاذ عبد الرحيم. وماذا يبتغى الكتاب مني وقد جاوزت حد الأربعين؟ والأستاذ فخر اللغة العربية أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، حرر ابتسامه.. أقصد رسالة حلوة.. أقصد ممتازة في ذم أخلاق الكتاب، المحررين حالياً، من أمثالي وأمثالك، نعتهم فيها بأشنع النعوت، وشبههم بالكلاب الهرمة التي يمر بها أصناف الناس، فلا تحرك ساكناً، وإذا مر بها كلب من أمثالها، حتى ولو كان هرمًا مثلي، نهضت، ولا تستقر حتى تفتك به. فلماذا، يا أستاذ عبد الرحيم، لماذا، يا أيها الكلب الهرم؟ لماذا تريد أن تقتلني؟ جعلت فداك؟ خيرتني بين الجهل والعمي، وما فيهما حظ لمختار. أوه، يا أسد. إن البغي مرتعه وخيم، والظلم يصرع أهله. هل كتب علينا أن نكون من أولئك القوم الذين شتمهم أحد أبنائهم حين قال: كانوا أقل الناس ذنوباً إلى أعدائهم، وأكثرهم جرماً إلى أصدقائهم؟ وهل كنا أصدقاء يوماً ما؟ لم أرد أن أزاحمك، والله العظيم، لم أرد قسماً بالله. كنت أريد أن أقوم بشيء ما. لماذا قرأت الكتب، وصاحبت موسى بن نصير وطارق بن زياد في غزواتهم الموفقة؟ والجاحظ في رسائله ومحاسنه وأضداده، ورحلته السنديادية في عالم البخلاء؟ وعرفت منه فخر السودان على البيضان والجوارى على الغلمان، ودرست معه خصال البغال، وعرفت أنهم يشبهون الأسد بالبلبل، إذا كان الأسد تام الخلق. فهل سترعل مني إذ أشبهك بالبلبل، يا أسد؟ أو بالأسد، يا بلبل؟ وحين

عدد الله أصناف نعمه، كما يروي الجاحظ، قال في القرآن: .. **والخيل والبغال والحمير** . وكان

علي أن أتمسك بذيل البغل، (...). ولكنني تهاونت وتماديت، ولم أدر أنني سأبيع البغل حين أبدأ بالسرج، وأنحدر إلى كاتب طباعة حين أشطب على كلمة (الموماً إليه). ولكن المكروه قد وقع، والناس في صعود ونزول، ونشاط وخمول. والأستاذ طارق بن زياد، بعد غزواته الموفقة، مات مغموراً مطموراً، وصار نسياً منسياً، ولم يذكره أحد من المؤرخين. والأستاذ موسى بن نصير أهين وعذب، وجرّد من أمواله المنقولة وغير المنقولة.. ومنها بغال كثيرة، بالتأكيد ولو كانت له آلة طباعة قديمة لصودرت أيضاً، ولما وجد شيئاً يدق عليه كتابنا وكتابكم بعد وقوع المحذور: اسكت، يا سيد معروف. فداك أنتب، أربيت في الغلواء، كم تعذلون وأنتم سجراني. سجرا أو غير سجرا، في كرة القدم أو في فرقة الإنشاد. كلها محسوبة ومكتوبة، وفي اللوح المرقوم. بتفكير وبدون تفكير، وإلى الله المصير. سواء أكان مصير طارق بن زياد أم موسى بن نصير. فالحياة توهب مرة واحدة، يعيش مرفه أو يعيش عسير، على ألا تكون حياة حمير.

وبهذا التعميم نهض السيد معروف من مقعده، وتقلقت مصارينه من الرجة، وألمته. يجب أن يذهب إلى الدكتور طاهر مرة أخرى ليكتب له دواء مسكناً. كم الساعة الآن؟ الغروب على جزر الكناري.

استقبلته ساعة أمه بدقات تسع. البيت ساكن سكون الأضرحة، في الليل، خافت الضوء، عفن الأحشاء، تغنى الصراصير في زوايا الظلمة، وتنتقل العقارب بحرية من ثقب إلى ثقب. خرجت مرهونة من غرفتها. سمعت الأم وقع خطواته. عندما تضعف حاسة تعوض الأخرى عما خسرت الحاسة المتضررة.

- معروف، هذا أنت؟

- نعم، أنا، يا أمي.

رفعت وجهها باتجاه الصوت، أو باتجاه الرائحة. وهيأت يدها لتلمسه. طوال حياتها، ولا سيما الفترة الأخيرة منها، تلمسه، وكأنها تشك في وجوده، وتريد أن تتأكد من ذلك باللمس.

- أين كنت؟

- حاولت، يا أمي، أن أبحر على باخرة من ضوء الغروب.

- وتتركنا؟

- أبداً. تركت الباخرة مذعوراً من فراقكم. هل تعرفين (كافور الإخشيدى)، يا أمي؟

- كافور؟

- كافور.

- من محلتنا؟

- لا. يدبر الملك من مصر إلى عدن، إلى العراق فأرض الروم فالنوبة. قال عنه أحد شعراء العراق القلقين:

له كل يوم بلدة وصحاب

وما كنت لولا أنت إلا مهاجراً

فما عنك لي إلا إليك ذهاب

ولكنك الدنيا إليّ حبيبة

- (فدوه) لهذا اللسان الحلو.

- أين أذهب، يا أمي، وقد ربطني كافور الإخشيدى؟ أرجوك، يا أمي، لا تؤولي الحديث. أقصد هذه الوجوه الحلوة.

ومرر ذراعه على أمه وأخته مرهونة التي كانت تنصت عند الباب. فنكست الأخت رأسها. وكأنما تشك بصحة انطباق وصفه على وجهها. تأثرت الأم وتلمست الفراش حولها، وقالت:

- من لنا في الدنيا غيرك؟

- ومن لي أنا؟ أنا كأبي الطيب، أغرب وأشرق، ولكن سأعود إلى (النعمانية) (اسم قرية)، بالتأكيد.

- ولماذا إلى النعمانية؟ هل عندك حبيبة هناك؟

- عندي. اسمها منية.

ونفض من حافة السرير الذي تتكور عليه أمه. مرّ بمرهونة ورأى عينيها تلمعان ببريق حبيس. همّ أن يسألها قبل أن تبادره بالسؤال عن عشانه: هل محبوبة هنا، أم تتفرج على التلفزيون عند الجيران؟ إلا أنه سمع حركة في الحجرة المجاورة، واعتذر في سره للخبيبة اللنيمية. هل يطرق الباب، ويعتذر لها؟ أنا أسف، يا محبوبة، ظلمتك! لم أرد أن أهينك، لم أرد أن أنال من شرفك وبراعتك. ولكنه فضل أن يناجيتها في سره.

- معروف...

- لا، أريد أن تطرق لي طاسة لبن.

وسمع حركة مرهونة الصاخبة وراءه، تستجيب لطلبه. هذا بيته حقًا، فأين يذهب منه؟ وإلى أين؟

شرب طاسة اللبن، وهو واقف قرب المرأة. كان وجهه صافياً يكاد يخلو من الظلال، فيه صلابة وإصرار وحمية. كأن العزيمة أخذت تتكون في قسماته المكتسبة تناسقاً يخفي عيب رقبته. وكانت النار قد خدمت في معدته، وساد الهدوء خرابب الألم فيها. كان يحس برواق غريب، وكأنه يوشك أن يقبل على عمل مريح للضمير. كأنما وضع نفسه، لأول مرة، في قلب الصورة، حتى عاتب نفسه مرة على اغتيابه لأخته محبوبة. لماذا، لماذا تغتابها؟ هل لتوهم نفسك بأنك لم تشترك في تقرير مصيرها النعس؟ تلقي اللوم كله على أمك، لتبرئ نفسك من أي ذنب. كأنك لم تكن سلبياً جداً، وجامداً، حين جاءت أم موفق لتخطبها منك، أنت أخوها الكبير، رأس العائلة، وأحلتها إلى أمك.. تبرات رأساً: أنا لا أعرف، سألبس ما تفصله أمي. وكأنك تريد أن تخفي موقفك الصريح من موفق، موقفك الخائف الاناني المتردد. سياسي! وأي مستقبل للسياسي في هذا البلد! وحكمت على مستقبل أختك بالسجن إلى أبد غير مسمي، بمستمسك جرمي واه. سياسي! ولو كان الأمر قد تم، ومنحت لنفسك بعض الثقة، وأعطيت لأختك حرية الاختيار لكنت الآن خالاً، على الأقل، لـ.. لـ.. كم قال؟ لأربعة، أو خمسة، أبناء أختي، الله يخليهم. ناشف، يا سيد معروف، ناشف.. خشمك أو أنفك ناشف. قلبك صخر جلمود، ما حن عليّ. الحنين إلى... ولكنك الدنيا عليّ عزيزة.. ذهاب وإياب.. بره بار.. ونهايتها الشيوخوخة واللحاق بخبر كان. كان يكون فهو كانن. هل أنت كانن، يا سيد معروف؟ ومن أين جاءتك هذه الكينونة؟ العدم أستاذ عبد الرحيم لن أكتب لك مقالا، حتى عن العدم. انعدم فهو منعدم. معدوم أحسن، أكثر استخداماً.. من فضلك اسكت، خير لك أن تسكت، أن تنجب، أن تنكب، أن تفرغ معدتك من عصاراتها الكاوية، إذا أردت أن تأكل خبزتك، أو طاسة لبنك، جامدة أو مطروقة بأوامر الأستاذ عبدالرحيم، أو بإرشادات السيد هاشم.. فعاليات تذيب عنكم الشحم. أين الشحم؟ بطنى على ظهري، أو ظهري على بطنى. ليس كمن رأى كرشاً يتبعه رجل أو بغل أو أسد أو أي نعمة من نعم الله، وأي كانن من خلقه. كان يكون فهو كانن. ستكون مجنوناً، ستكون، يا ريت أن تكون، لا أن تكون. هل يصح أن يصاغ المبنى المجهول من كان؟ لا، لا يجوز، لأنها فعل ناقص. ولكنها تكون كاملة أيضاً. لنسأل الأستاذ زمخشرى. الظريف الخفيف الظل. يعجبني أن أعرف. واتجه السيد معروف إلى زاوية تتراكم الكتب فيها. عليها طبقة كثيفة. ك و ب: كوب خمر. يا ريت! قاتل الله المعدة. ك و ح: كاوح. لا أعرف. ك و ر: كير، موقد النار. كلنا لها. ك و ز: أخترفه بالكوز. ك و س. كوسه الله بالنار. هل رأيت؟ أينما وليت رأيت النار، حتى قبل أن تصل إلى النار الأصلية، نار القيامة. تمرين إجباري! فعاليات. ك و ف. ك و م. ك و ن. هذه هي كانت الكائنة والكوانن. قال سويد: فلما التقين ا وكان الجداد، أحبوا الحياة فولوا شللاً. هروباً من الفعاليات، أو أي شيء آخر قاصم للظهر. (وأخبرني بالكانن عندك) لا، لن أخبرك. لا أريد مستمسكات جرمية أخرى. (...) وتقول أقفرت الديار وكان ما يسكنها أحد، أي لم يكن بها. مثل الشاطي.. أقفر من ذات الابتسامات الحلوة، والعينين الحدوبتين.. (وتقول إذا سمعت بخير فكنه، أو بمكان خير فاسكنه).. سأحاول أن أطبق هذه المعادلة، يا أستاذ زمخشرى. شكراً، على الاستشارة! لا، يجب أن تكون نفسك بنفسك. ولكني ما كل ما يتمنى المرء يدركه ولا كل ما يريده يكنه.

أعاد الكتاب فوق تل الكتب المهجورة.. سأغسل يدي. تلوثت. إذا دخلها الغبار تقرحت، وإذا دخلها الكربون تعفنت، وإذا لم يدخل شيء ثارت. فضيحة!

فراش مريح. طقطقت له عظامه. أين الوجع؟ هنا؟ هنا؟ هنا؟ لا أدري، كل المواضيع موجعة. معدتك تاريخك. لا أظن لي معدة ولا تاريخ. مجرد جرح موجه. ولكن ما لجرح بميت إيلام. يعني أنا حي أتألم فأنا حي. وهذه نعمة من نعم الله أيضاً. نم، يا سيد معروف، قرير العين.. نم.. أه.. تتعاب عمر..

سبع دقائق من ساعة أمه. ونهض السيد معروف على عجل. وجد الشاي مهيباً. مرهونة تستيقظ قبله. لو كان لها بعل كانت.. ارتاحت معدته لمذاق الشاي الساخن، ونكهة الجبن المنقوع. ولم تعو عليه. واكتفت بالقرقرة والتجشؤ والحشرجة الناعمة الخفيفة، فلم يعبا لها كثيراً حتى بعد أن تاوحت متأثرة بالدحس الروتينى في السيارات العامة. وكان السيد معروف مسيطراً عليها، وعلى كامل قيافته، وحتى على زر سترته الذي انقطع من اليسار أثناء الخروج، فتلقاه باليمين. مثل راية رفعت لقوم. ودخل الدائرة منشرح الصدر. محلول عقدة اللسان، يردد في سره: لست أعور، ولا أحول، ولا أعرج، ولا أثلغ، ولا أعجم، ولا مشطور الشفتين. نعمة. وشعر باعتزاز وفخر. حتى استطاع أن يفتح غرفة المحاسبة، وهو يردد قول النبي العربي بينه وبين نفسه:

مكتبة الملتقى

(مسكين مسكين رجل لا زوجة له، مسكينة مسكينة امرأة لا بعل لها). وأطل على الجنس اللطيف إطلالة خاطفة تقول: أنا هنا. وإن كانت لا تفي بالعرض، فقد اختلطت أمام بصره الوجوه الرجالية والوجوه النسائية، تصفيقات الشعر والصلعات، الشوارب ولُعس الشفاه، النهود والزنود. لم يدر من المقصود في قول زملائه في غرفة الطابعة: إنها تصلح زوجة له. عيونها وسبعة، وشعرها كالدي. حقاً، كان اللون الأسود هو الطاغى.

صعد الدرج بخفة. وبادر فراش المدير قبل أن يبادره:

- لا، لست بلجنة النشر، ولن أكون.

- على كيفك، يا سيد معروف.

- انتهى وقضى الأمر.

- الأيام بيننا.

- لا تهددنى بالأيام (...).

واندفع إلى غرفته بحركة اقتحامية جسور.

- صباح الخير، يا جماعة...

- صباح الزردة والحليب.

- نفا...

ولم يكمل جملته المعتادة، اتجه بخطى ثابتة نحو منضدته، ورفع النفاضة عنها، وفتح النافذة، وألقاها في الشارع.

- ما هذه الحركة الاستفزازية؟

- مخالفة قانونية صريحة.

- استهانة بأموال الدولة.

قال بصوت ثابت:

- سيكون ذلك كل يوم، إذا وضعتموها على منضدتي..

- مع سبق الإصرار.

- حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً. وجلس على منضدته شاعراً بالعيون مصوبة إليه. صف أربع أوراق واضعاً بينها الكربون. وحشر التشكيلة في شق الآلة الطابعة، وخرط، وعدل، ودقق، واستعد ليطلع كتابنا وكتابكم.

- لا، يا سيد معروف، هيئ طابعتك لطبع قوائم الحسابات.

- أهذا قصاص؟ أنت تعرف أنني لا أطيقها. خطوط ومربعات ومستطيلات.

- أنا أعرف لماذا تتضايق من قوائم الحسابات.

ملتقى البحرين

<http://www.bahrainonline.org>

- أرجو ألا تؤول، يا سيد هاشم.
- النية واضحة.
- ليست لي أي نية.
- لا تريد أن تعمل.
- لا، أبدأ. آلتى في الانتظار كالعربة الكسيحة.
- مصيبتك أنك تستخدم خيالك أكثر من اللازم. قال عبد اللطيف:
- وساوس الشيطان. السيد مطر:
- مادة الذكاء الأثيرية.
- صاح السيد هاشم:
- لا تصدقوا. مجرد هروب. هناك عملية خبيثة تجرى في ذهنه.
- أي عملية؟
- عملية تحول: تصوروا، بدلاً من أن يكتب الموضوع: تحويل خط، كتب الموضوع: تحويل تفكير. حملق إليه السيد معروف:
- يعني كنت تعرف خطنى، ولم تنبهنى عليه؟
- ولماذا أنبهك عليه؟ أترك الرئاسة تكتشف الجرم.
- سيد هاشم، لا تسرف في إدانتى.. لا تسرف.. والظاهر أن لهجة السيد معروف كانت قوية جداً، حتى إن السيد هاشم صمت محرّجاً، وبعد ذلك حوّل الموضوع:
- المهم أنت تحب التلاعب. ولهذا تكره قوائم الحسابات، حيث لا مجال للتلاعب.
- لا، أبدأ. كل ما في الأمر أن آلتى القديمة ترفض الاعتراف بأن الخط المستقيم أقصر مسافة بين نقطتين.
- لا، أنت تريد شيئاً تدس فيه أنفك، تريد أن تغير في لغة المكاتبات الرسمية.
- أقلعت عن هذه العادة السيئة منذ زمان.
- لا أظن. تزج أنفك فيما لا يعينك، وتتهرب مما يعينك.
- ما هذا الذي يعينى، وأتهرب منه؟ حدق السيد معروف في وجه السيد هاشم، وأوقف كُتاب الطباعة الدق على آلاتهم، يريدون أن يعرفوا هذا الذي يتهرب منه السيد معروف. قال السيد هاشم بتحدٍ:
- الفعاليات.. اليوم آخر موعد للتسجيل فيها. بهت السيد معروف، بينما اطمأن الآخرون على براءتهم من هذه التهمة. التهم إسفنج الصمت هواء الغرفة، فأحس السيد معروف بالضيق، فسأل مختنقاً بندرة الهواء:
- هل أنت جاد يا سيد هاشم؟

مكتبة الملتقى

- بالطبع. اليوم آخر موعد للتسجيل.. لقد نبهتك.
- لا، أقصد هل أنت جاد في مسألة الفعاليات؟
- جاد بالطبع، كمادة من مواد القانون.
- دفعتها بصفة القانون.
- لا تطعن بالتوجيهات.
- سارع السيد معروف لينفي هذه التهمة:
- أنا لا أظن بالتوجيهات، ولكن أسألك بضميرك: هل أنت جاد في مسألة انطباقها عليّ، أو صلاحيتي لها؟
- ولم لا؟ قال السيد معروف في ضيق شديد متشبهاً بقلبتي سترته:
- بريك: هل أصلح أنا لأكون ممثلاً على المسرح أو لاعب كرة قدم، أنا الذي كنت أتهرب من الرياضة في المدرسة، وما أزال أكره أعمال السخرة؟
- هل سمعتم؟ يعتبرها من أعمال السخرة. عملية تحول خبيثة تجرى في أعماقه.
- ليست هناك أي عملية تحول. أؤكد لك. ما أزال ذلك الموظف الدوب المنكب على آتته الطابعة.
- ولم كل هذه المماحكة، إذا؟
- أريد أن أسألك: هل أنت جاد في انطباق التوجيهات عليّ؟
- قلت ولم لا؟ فمن يدري ماذا يوجد في بئر نفسك المظمورة؟
- رجعنا إلى المظمورات. يا أخي، أنا حقل نفض ناضب، والله العظيم، ناضب. دعوني مكلكلاً على عائلتي.
- قال السيد عبد اللطيف مخففاً على السيد هاشم عباه:
- لماذا، يا سيد معروف، تتمسك بالمعنى الحرفي لهذه التوجيهات؟
- قال السيد هاشم متشبهاً بالفكرة:
- نعم، ولماذا ذكرت كرة القدم والتمثيل؟ كأنما لا يوجد سواهما من الفعاليات.
- فرقة الإنشاد؟ عرض عليّ أحد الظرفاء أن أنضم إلى فرقة الإنشاد، وأحرك شفتي بدون صوت. سارع السيد كاظم ليقول:
- أنا لم أقل ذلك.
- لا تغضب، يا سيد معروف، ليس هذا فقط. أكد السيد هاشم:
- المهم أن تكون روحك معنا.
- إذا كان الأمر يتعلق بالروح، فهي معك بالتأكيد. وهل يحتاج ذلك إلى تدليل؟

ملتقى البحرين

<http://www.bahrainonline.org>

- وأن تنذرها للمصلحة العامة.
- منذورة، منذورة منذ الطفولة. أمي تقول: لقد خلقت منذوراً.
- هذا هو المهم. ولكن يحتاج إلى إثبات ملموس. أحس السيد معروف بأن فمه يجف، وقال في نفسه: هذه بداية هيجان المعدة.. العصارات تأكل جدرانها. وتأفف وقال بصوت مسموع:
- أوه، أي كابوس، أي كابوس. قال السيد هاشم مشهداً زملاءه:
- اسمعوا. يقول كابوس.
- يا أخي. الكابوس في داخلي. معدتي كابوسي. وكان يشير إليها كما يشير إلى دملة متقيحة ملتهبة، مختفية وراء حجاب قاس. وقال لنفسه حين عادت الآلات إلى القرقة: " سأذهب اليوم إلى الدكتور ظاهر.. سأذهب.. الغروب يذبح في معدتي، ويسلخ. إلى متى، يا دكتور ظاهر، سأعيش على معدة منقرحة؟ الأديانين، أو الأديانيتين، لا أعرف اسمه بالضبط زادت نسبته بالدم. يغلي. ألعن أبا الغلاء لأبي الغليان لأبي صريح العبارة. أين أنت الآن. يا ذات الابتسامة الحلوة والعينين الحدويتين؟ مسدى على معدتي.. هديها.. سنتور علي.. سأثور.
- سيد معروف. حضرة المميز يدعوك.
- حاضر. يحس أن العيون تعلقت به كالعادة. (... أستغفر الله، أستغفر الله.
- نعم أستاذ عبد الرحيم. مذ الأستاذ عبد الرحيم يده دون أن يرفع رأسه عن الأوراق الموضوعه أمام عينيه.
- ماذا، يا أستاذ؟
- المقالة.
- ها، المقالة! أنا آسف، يا أستاذ عبد الرحيم. نظر إليه المميز من تحت النظارة. عيناه من تحت النظارة السميكة تجوفان قبيحان، بثرتان أو دملتان حمراوان، أو أي شيء آخر غير العينين البشريتين.
- ما هذا الأسف؟
- لأنني نسيت.
- رفع المميز كل قامته، واتكأ بجذعه على ظهر الكرسي.
- ماذا قلت؟
- نسيت، يا أستاذ عبد الرحيم.
- ولكنني متفق مع سيادة المدير..
- أعتذر.
- أهذا كلام عاقل؟
- أرجو ألا يكون ذلك. ولكن النسيان قد وقع.
- ولكن كيف نسيت؟

- نسيت. أنت تعرف أن الإنسان من النسيان، وليس كقرًا أن ينسى الإنسان، يا أستاذ عبد الرحيم.
- في هذه الحالة كفر.
- ربما سأكفر عن الكفر غدًا.. أقدم التوبة.
- ولكن اللجنة تجتمع اليوم. أخرت اجتماعها إلى اليوم من أجلك.
- من أجلي أو من أجلك، ولكن النسيان قد وقع.
- ومع ذلك فأنت لا تقدم كلمة قاطعة.
- ومن يستطيع أن يقدم كلمة قاطعة؟
- عجيب أمرك هذه الأيام، يا معروف.
- ليس النسيان من الأمور العجيبة، وإلا فماذا تُسمى الأمور العجيبة الأخرى؟ ليس أداة جرمية على أي حال.
- أسألك سؤالاً صريحاً: هل نسيت أن تتعشي البارحة؟
- بل أكثر من النسيان.
- كيف أكثر من النسيان؟
- كرهت الطعام، يا أستاذ عبد الرحيم.
- غير لذيذ، فكرهته؟
- لا، يا أستاذ عبد الرحيم، بل لأن معدتي كانت توجعني فذهبت إلى الطبيب.
- هزّ المميز رأسه في حيرة من أمره، وقال:
- هذا باب جديد، الذهاب إلى الطبيب.
- نعم، يا أستاذ عبد الرحيم، باب جديد وثقيل على الميزانية.
- من يدري؟! ربما يتكرر اليوم! سكت السيد معروف. فسدد المميز إليه نظرة مدرعة.
- لا أضمن لك ألا يتكرر، يا أستاذ عبد الرحيم.
- كيف لا تضمن؟
- لأنني بالفعل نويت الذهاب إلى الطبيب ثانية. إذا انفتح باب في الميزانية لا تستطيع أن تغلقه فتستريح.
- لا أعرف النعمة الجديدة التي تتحدث بها.. ميزانية! كأنك دولة قائمة بذاتها. أريد أن تعذني: هل ستكتب المقالة غدًا؟
- الله يعلم، يا أستاذ عبد الرحيم.
- ستورط نفسك.

- الله يعلم.
- تضعها في تهلكة.
- الله يعلم.
- اسمع يا سيد معروف، هل أنت تسخر مني؟
- الله يعلم.
- كفي.. ستعرف كيف الله يعلم.
- لا أحد يعرف كيف الله يعلم. هذا من شأن البارئ عز وجل.
- أعرف. وستعرف أنت بالتأكيد.
- أنا العبد الذليل؟ لا أظن.
- ستعرف، لا تتباله.. الموضوع: تحويل تفكير. هذا هو الأساس.
- والله العظيم....
- لا تحلف.. كنت موظفًا مستقيمًا كالميل.
- وما أزال، يا أستاذ عبد الرحيم.
- لا أظن.. أعوج.
- لست أعوج ولا أعرج ولا أهوج ولا مشطور الشفتين.
- عاد السيد معروف إلى غرفته منهوكًا يشعر بوجع في مفاصله. وكأنه صعد مرتقي صعبًا. ركبتاه تننان عليه، وجفناه يحكانه، وكأنما من ملح دموع غير مرئية. ولما استقر وراء طابعته أحس بسن الكافرة تعود إلى دورانها اللنيم في معدته. طعنة نجلاء يحس بوجعها المؤلم في ظهره، مع عرق لزج جعل الفانيلة تلتصق على عموده الفقري. ثم وخزت سن الكافرة عظم القص، كجمرة حمماة.
- استغفر الله في سره، واستعاد به، وبملائكته ورسله والصالحين من أوليائه. تفتنت حيوية الصباح، واستحالت إلى ضيق في الصدر، وثقل في الرجلين، وامتعض مفرز من الناس والنفس والجسد. ومن جديد راح يتمثل ذلك الشيطان الذي يوسوس في صدره، ويستولي على لسانه، ويقول أشياء فجائية فالتة لم تخطر على باله من قبل. ما إن تصدر كلمة ملعونة حتى تتقاذف في أثرها كلمات لا نهائية، وكأنه يدخل في حوار يمكن أن يستغرق العمر بأكمله. لم يحس السيد معروف بالنضوب، لكنه أحس بالحسرة على شيء لم يفه به لسانه حتى الآن. كلمات كثيرة، ولكن شيئًا مهمًا بقي في قلبه كان يجب أن يُقال، ولكنه لم يفله حتى الآن، شيئًا لا يعرف ما هو بالضبط، ولكنه موجود يتقل على القلب، ويخربش في الصدر كالفأرة الحبيسة، هو سر هذا الضيق الذي يحس به الآن، الامتعض القريب من التقوى، الثقل الكريه الشبيه بثقل الأصفاد، والمشى في النوم، كالعجز، كالعناد. قاتل الله هذا العناد. (...). أوه، كفي. رأى قوائم الحسابات مكومة على منضدته. اغتاط وعربد شيطان العناد في صدره. كأنما رأى النفاضة التي ألقاها صباحًا من النافذة تعود إليه، وتهزأ به. رفع قوائم الحسابات من المنضدة، وخرج من وراء آتته الطابعة، واتجه نحو منضدة السيد هاشم.
- تفضل.
- ما هذا؟

مكتبة الملتقى

- لن أخطئها. قسمًا بالله لن أخطئها. سأرميها من الشباك، ولا أخطئها.

- ما هذه الجسارة؟

- سمها ما شئت، يا سيد هاشم، سمها ما شئت. فأنت تستطيع أن تسمى أي شيء، بأي شيء آخر.

قال السيد كاظم:

- هاتها.. أنا أطبعها. وتبرع بذلك السيدان عبد اللطيف ومطر.

- هاتها، هاتها.. انتهيت من شغلي.

- خذوها.. خذوا اللوغاريتمات، وتمتعوا بها بقدر ما تشاؤون، أما أنا فقد تركت الفرع العلمي بسببها، وبسبب المثلثات والجذر التكعيبي.. أشياء جامدة لا تعرف الابتسام. وما كنت أتصور أنها تطاردني في كهولتي.

جاء السيد كاظم ليأخذها. وابتسم له مشجعًا. قال السيد معروف:

- هانت، يا سيد كاظم، هانت.

- لا، سيد معروف، لا تتشاعم.

- هانت وهزلت، والله. من محرر له طموحات إلى كاتب طابعة يستنسخ المربعات والمستطيلات. فكيف لا تهون؟

عاد السيد معروف إلى منضدته. وأسند مرفقه عليها، لوي رأسه، ووضع على راحة يده المضمومة، ونظر إلى طابعتة السوداء القديمة المستهلكة باشمنزاز، وكأنما ينظر إلى مزق معدته، إلى حطام حياته. كتلة شوهاء لا تتحرك إلا بفعل قوة خارجية، وتهضم ما يلقيه الآخرون، محدثة بذلك الكثير من الضجة والنواح والحشجة، متعطلة من حين لآخر، نزقة متعثرة، متداخلة الحروف، معوجة الخطوط، لا يعرف أحد متى تدق دقتها الأخيرة، وتهمد إلى الأبد، غاصة بلقمتها الأخيرة. إن آخر حصن بدا له لا يقوي على ستر نفسه، فكيف يستطيع أن يستمر مخلوقًا آخر؟

فتح الباب بدفعة قوية، وظهر فراش المدير العام.

- سيد معروف، السيد المدير.

قرقت عظام السيد معروف حين نهض فجأة. امتحان ثان؟ توجه نحو الباب، ثم توقف هناك، وأرسل بصره في الغرفة، فوق على النافذة التي قذف منها بالنفاضة في الصباح. كانت عيون زملائه تحتها تنظر إليه بريية، وكأنما مقدم على عمل منكر ضدهم. في الممشي عدل ربطة عنقه، ومسح على فؤديه الشانبين، وتوكل على الله وكأنه خارج إلى سفر بعيد، وتقدم من باب المدير. همس الفراش قبل أن يفتح له الباب: (لا يستقر السيد المدير حتى يعود بك إلى اللجنة).

- نعم، يا سيدي، هل أرسلت في طلبى؟ أمسك المدير بقلم، واتكأ على ظهر الكرسي، وقال وهو يضرب به أصابعه.

- نعم. هل راجعت نفسك؟

- راجعتها كثيرًا. دائمًا أنا معها.

- وعلى ماذا استقر رأيك؟

ملتقى البحرين

- بخصوص أي شيء؟
- بخصوص المقالة.
- المقالة مرة أخرى؟ ستجني عليّ المقالة هذه. ستأخذني إلى قبري. وأحس بسورة غضب تعتمل في مكان ما في نفسه.
- أي مقالة، يا سيدي؟
- المقالة نفسها. أما تزال تنكرها؟ أتبرأ منها، أمقتها. ألعن ذلك اليوم الذي سطرته حرقاً فيها.
- نعم، يا سيدي.
- تنكر نسبتها إليك؟
- كل الإنكار، يا سيدي. حملق المدير في وجهه، وهزّ رأسه:
- عجيب أمرك، يا سيد معروف. ويدهشني هذا الإنكار ويحيرني. مقاتك وتنكرها؟
- أنكرها، يا سيدي، أنكرها.. فأنا لم أكتبها، يا سيدي. لم أقم بأي عمل ملموس في حياتي..
- وهي مذيلة بتاريخ.. حين كنت تعمل في لجنة النشر.
- لا تاريخ يا سيدي.
- كيف لا تاريخ؟
- هكذا، ببساطة، لا أذكر تاريخاً.
- هل أنت تنكر وجود التاريخ عليها، أم التاريخ بشكل عام؟
- الاثنين، يا سيدي.
- وضع المدير العام القلم على الأوراق مستفزاً، وقال:
- أنت مجرم إذاً، غيبي، وغير وطني.
- يمكن أن تكون لي بعض الصفات السيئة، يا سيدي، ولكن ليس منها هذه الصفات.
- من صفاتك الحماسة والمكابرة.
- ربما الأولى.. ولكن الثانية لا. يقول الزمخشري: كابر فلان فلانا طاوله بالكبر.. فعلى أي شئ أكابر أنا؟ أنا أصغر مخلوق فيكم.
- اسكت، سفيه.
- تأمر، يا سيدي.
- تنكر التاريخ؟

مكتبة الملتقى

ساقه المدير إلى زاوية، وحاصره. رأى شيطان العناد يطل عليه من وراء نسيج عنكبوت معلق فوق رأسه.
قال بعناد الشيطان:

- أنكره، يا سيدي، أنكره كلياً - تنكر تاريخك؟ فكر السيد معروف قليلاً، ثم قال:

- إذا كان لا بد من الاعتقاد بوجود تاريخ لي، تبني قول أحد الأطباء: تاريخك في معدتك.

- هاه! بلعته؟

- لا، يا سيدي، بل هو الذي تكوّن هناك دون إرادتي عن طريق الأطعمة التي تناولتها، والأزمات التي مررت بها.. أو هذا ما فهمته من كلام الطبيب.

- هاه! يا للصلافة.

- هذه صفة أخرى غريبة عليّ، يا سيدي.

- قلت لك لا تكرر كلمة سيدي.

- تأمر، سيدي.. أقصد عفواً يا.. أقصد.. ما هو التاريخ يا..؟ أرجو المعذرة: ما هو التاريخ؟

- تريد أن تمتحنني أم تعلمني؟

- لا هذا ولا ذاك، يا.. أريد الاستفادة يا.. هل تسمح لي بأن أناديك: أبا زياد؟

- لا، لا أريد.

- تأمر، يا سيدي.. أقصد عفواً.. نعود إلى التاريخ.. هلا تفضلت ونورتنى بتعريف قصير عن التاريخ؟ إذا سمحت، بالطبع.

- أوه.. التاريخ، يا بهلول. هو تاريخ الناس. تاريخ البشر.

- لا أعتقد، يا سيدي. أرجو أن تسمح لي بهذا النداء اللازم. من قبل كان يا مولاي، والآن يا سيدي. ساد سيادة. إنه ينتاب الناس من أمثالي بشكل لا إرادي، كالفواق، كلما خاطبوا الأكبر منهم رتبة.

- فواق؟

- أو شهيق، أو دعاء، أو صلاة. على العموم، عكازة لا يمكن الدخول إلى حضرتكم ومخاطبتكم بدونها. هكذا اقتضى التاريخ الذي تعدّه حضرتكم تاريخ البشر، وأعدّه أنا تاريخ المميزين والمديرين العاميين وملاك البيوت والمقاولين وأصحاب الأسواق العصرية، ومن شاكلهم، وأكل أكلهم.

- اسكت، سفيه.

- تأمر، سيدي.

- هذا تلقين من دعاء السوء والمشاعيين ومقسمي الناس إلى طبقات. هذا تجديف بالقيم. من أين جاءك هذا التصور الخاطئ للتاريخ؟

- لأنني لا أجد فيه شيئاً من تاريخي، من حياتي. ألسنت من البشر، يا سيدي؟

- بدأت أشك في أنك من البشر.

ملتقى البحرين

<http://www.bahrainonline.org>

- الشك قائم منذ الأبد، يا سيدي. وهو مثل خلق الكون ليس له بداية، ولا أدري هل ستكون له نهاية. العلم عند ربي. ولكن من نعم الخالق عزّ وجل أن ما من إنسان أنكر، بمحض إرادته، أنه من البشر. وما دامت نعمة البارئ هذه قائمة، فإن هناك ملايين عديدة تشعر أنها خارج تاريخ البشر، أو ربما بلا تاريخ مكتوب، أو على الأقل، لا تحس بالتاريخ، ولا تعترف به. ومن أجل ذلك تقول إنها حقول نطف ناضبة حتى لا يستغلها سادة التاريخ.

- اسكت، حيوان، حشرة.

- وهكذا نفيتني بهذين النعتين من تاريخكم، يا سيدي.

- سأفنيك من الدنيا كلها، أيها الجربوع. اخرج، اخرج.

خرج السيد معروف خفيًا، كالروح الخارجة من الجسد. ولكنها روح ذات أوزار، خرجت من معركة منكر ونكير. تعلقت به أربعة أزواج من العيون حين دخل غرفته، متسائلة متوقعة شيئًا كان يجب أن يقع، وقد وقع بالفعل. وإن كان بالشكل الذي لم يتصوره أحد من زملائه. حط السيد معروف بجسمه على كرسيه، وتنفس الصعداء، وكأنما أعاد الأمانة إلى خالقها، الذي أوصي بأداء الأمانة كاملة غير منقوصة. وفطن إلى أن ركبته لا ترتجفان، وجفنيه لا يحكانه، كما حدث في المرات الماضية، حين كان يحس وكأنه فرغ من نوبة نحيب جافة بدموع غير مرئية. وفرّ الفأر الذي كان يخربش في صدره إلى منطقة نائية من وعيه، حيث رقد مثل حصوة في المرارة، مثل ندبة من معركة سجّلت عليه، وإذا خرج من الدنيا، نفي منها، خرج معه محمولاً على أعواد أو تابوت. وذلك هو الذي كان يشيع في نفسه شيئًا من المرارة والعجالة وعدم الارتياح، وكأنما أصبح ينطوى على سرّ غير مأمون من قبل الآخرين. وكانت الدفقة المستمرة العجماء، وسكوت الألسنة التي تعودت على التعلوق تشعراؤه ببداية حالة من الحصار والعزل جعلته عاجزاً عن الإتيان بحركة، أو النطق بشيء. ولم يعد يعرف ماذا يصنع بيديه المرتخيتين، وكيانه المتوتر المشدود كله كالقوس. فنهض، وقال دون أن يلتفت إلى أحد:

- صداع فظيع، يا جماعة الخير.. أسمحون لي بالذهاب إلى البيت قبل الدوام بقليل؟

وفي الطريق اعترته نفس الرجفة اللاإرادية. نفس القشعريرة، ولكنه وجد في نفسه القدرة على كبحها، ولم يتدثر في البيت. حشر يديه بين ساقيه المطبقتين في جلسته على سريره، ونظر بسهوم إلى مرهونة، وهي تدخل عليه بصينية الغداء. كانت صامتة تبدو متعبة مأزومة مثله، وكأنما شهدت مغامرته اليوم في الدائرة. نظر إلى ما في الصينية، وشعر بتقزز يتقل على معدته، فقد رأى مرق (القرنابيطة) مبرقعا بطبقة كثيفة من الدهن البرتقالي اللون، وهذا وحده كفيلاً بأن يثير شجن معدته، ويبعثها على الاحتجاج. وبدا له صحن الرز أبيض بارداً تصور أنه إذا وضع لقمة منه في فمه، لن يجد في فمه اللعاب ليمضغه. أزاح صينية الغداء، وذهب إلى أمه. وشعر بالاطمئنان الأعجم، وهو يدخل إلى حجرتها، وكأنما يعود إلى طفولته، حيث لا هموم، ولا تفكير، ولا تاريخ، ولا ماضٍ، ولا تهديد بالخروج من الدنيا. رآها جالسة جلستها المعتادة منطوية الجذع على السرير، ملفوفة الرأس بغطائها البيضاء. شممت رائحته قبل أن تراه، أو أحست بالحركة، ورفيف الهواء حين دخل الغرفة. رفعت رأسها إليه.

- أهذا أنت، يا معروف؟

- نعم، أنا. كيف حالك، يا أم معروف؟

- ما دام معروف طيباً، فأنا طيبة. أهدي له حنان الأمومة عزة نفس إضافية.

- صامد، معروف، صامد.

- هذا المرجو من الله.

- وكيف عندك ضغط الدم؟

صمتت، وعرف أن وراء صمتها ضغط دم عالياً. قالت متأوهة، تزيح قناع الثقة الذي تيرقعت به قبل لحظة.

- ضغط الدم يضغط على عيني ويحرمني حتى من رؤية أشباحكم. لم أرك حين دخلت الحجرة، ولكنني أحسست بالحركة. إن لدخولك حركة خاصة تختلف عن حركة أختيك.. حركة رجل في البيت.

- سيكون هذا الرجل إلى جانبك دائماً.

- يا ليت... وتهدج صوتها، وكادت تبكي.

- العاطفة، يا أمي، العاطفة القوية تؤثر على عينيك وتزيد من ضغط الدم.

- وهل أستطيع أن أنظف قلبي منها؟ ليس ذلك بيدي.

- اطمئني بالأ، فأنت امرأة قوية.

- نعم، قوية. أشهد بالله على أي قوة، ولولا عيناى، لرأيتنى الآن أطارد، وأخذ نصيبي من الدنيا.

كان يعرف ذلك دون حاجة إلى إثبات. حياتها شاهد على ذلك. ألم تربيته وتربى أختيه؟ صحيح أن خاله ساعدها في رفع حملها منذ وفاة أبيه، ولكنها في حياتها كانت امرأة قوية حقاً، وصلبة..

- أخذت نصيبك من تعب الدنيا وزيادة.

- وما زلت أستطيع التحمل وأحب أن أتحمل. كذب. ليس الإنسان كالحبوان يفتس بسرعة. إنه كالقطة ذو سبع أرواح.. أوه، يا معروف. أنت تعرف. ولكن عيني نكتت بي.

ومست عينيها بطرف فوطتها. الدموع ترقرت فيهما، فتلزجتا.

- أعرف، يا أمي. وأنا الذي نصحتك بإجراء العملية أكثر من خالى. كنت ألح عليك دائماً.

- خفت! هذا نصيبي، خفت... خفت أن أفقد البصيص الذي كنت أرى به الدنيا، أراكم والناس، وطريقي إلى بيت الراحة. ولم أدر أن هذا البصيص يخفت شيئاً فشيئاً. وأنا أخاف من العمي الكلى، أخاف أن تحجب عني أشباحكم، ولا أرى من الدنيا غير الظلام. عندئذ سيكون ظلام القبر أهون.. لا.. لا، لا أريد.. ظلام القبر بارد، يا معروف، وموحش وخانق.. لا أتحملة، لا أستطيع..

وظفقت تبكى.

- عمرك طويل، يا أمي.

- وهل تتصور أن نفسي هي التي تهمني؟ لا.. أنا لا أحب القبر لأننى لا أرى الذين أحبهم، ولا أعرف ماذا يجرى لهم خارج القبر. أنا، على الأقل، أراكم تتحركون أمامي، أرى أشباحكم، وأشم رائحتكم، وأستريح، يهون علي العمي.

- أريد أن أقول لك شيئاً.

- تفضلى.

- أخاف أن تتأثر.

- قولى. لم أعد أتأثر بشيء.

مكتبة الملتقى

- أنت تذكر (موفق)، ذلك الذي خطب أختك محبوبية قبل عشر سنين.. ربما.
- أذكره بالطبع! هل جاء يبحث عني؟ هلعت الأم. لاح ذلك من حركة كفها اللانبة المبسوطة على الفراش. وبعد فترة من الصمت كانت تحس بثقل انتظاره خلف جفنيها نصف المطبقين
- وجدوه..
- وهل كان مفقوداً ليجدوه؟
- وجدوه.. مقتولاً.
- مقتولاً؟.. أين؟
- على الشاطئ؟.. قرب بيته. ساد صمت مشؤوم سرح كل واحد منهما في خياله الخاص، إلى توجساته ومخاوفه. كان السيد معروف يتمثل عملية القتل، وكأنها وقعت أمام عينيه اليوم، كان يتخيل الجثة ملقاة على تراب الشاطئ منبوذة معفرة مدماة. والصمت لم يعد يحتمل. كان لا بد من سؤال.
- متى كان ذلك؟
- قبل يومين.
- يعني في نفس الليلة؟
- أي ليلة؟
- لا شيء..
- والصمت عاد يباعد بينهما، مثل لجة عاتية من نهر مضطرب. والخيال إذا أصيب بالحمي شلّ اللسان والمنطق، وأصاب العقل بتوهج وهذيان.
- قالت الأم بصوتها الكئيب:
- كأن قلبي أعلمني.. إذا تزوجته أختك. أردف يكمل الجملة الشرطية:
- تتزمل. - ثم صاح بضيق لم تعرف الأم من أي مصدر نبع - إذا لم تتزمل هي تتزمل أخرى.. لا فرق!.. عنده أربعة أولاد..
- من أين عرفت؟
- عرفت.. أنت تقولين لا يخفي شيء في الدنيا. ولولت الأم لشيء خفي في نفسها. ودّ السيد معروف لو يعرفه على وجه التحديد. ولكنه خمن أنه خوف غامض من مصيبة تحل في فناء البيت أكثر منه ندماً على فعل صدر منها، أو لربما أسف على خسارة رجل ارتبط بذكرى دفيئة في قلبها، أو ربما تتأسف الآن لماض كانت فيه مفتحة العينين، والآن، وهي في ليل عماها، ربما كان يبدو مثل حياة أخرى في أرض أخرى، وبين أناس آخرين لهم وجوه، وغمزات عيون، وافترار شفاه، واختلاجة أيدي. وحين نهض من سريرها صاحت وراعه:
- معروف، هل تأثرت مني؟
- لا ...

- أعرف أنك تأثرت.. أعرف، لا حاجة إلى الإنكار. ومحبوبة تأثرت أيضاً.. أغلقت بابها منذ أن سمعت الخبر في الصباح، ولم تخرج لتناول غداها. وتحولت ولولتها إلى انتحاب صارخ مستصرخ تحاول به أن تخترق جدران الظلام الذي يفصلها عن رؤية التأثر في وجوه الآخرين، تتغلب به على انقطاعها ووحدها ووحشة نفسها المنبوذة والمخاوف والهواجس التي تتكون غزيرة في صدرها، ودون إرادتها، فتسبب بها اختناقات، وتمتص الهواء من صدرها، فتشهق وتشغط الهواء من فمها، وتهتز بكل كيانها هزات عصبية متشنجة حتى خشى السيد معروف أن تستولي عليها الرعشة، وذلك يحدث كلما انفجر ذلك البركان الخامد في صدرها، ورفع حممه إلى يافوخها، وأوشك أن يخنقها. - اسكتي، اهدئي لا ينفع البكاء الآن. ما جرى جري. أو كما يقول ذلك العربي الحكيم: ما مات فات، وكل ما هو آت أت.

وأكمل السيد معروف الخطبة في سره: (...). وآباء وأمهات وذاهب وآت. وذهب السيد معروف إلى غرفته دون أن يجد الرغبة حتى في الاستمرار في تهدئة أمه. قابلته مرهونة بوجهها المسحوب الممتقع ورقبتها الطويلة مثل فراغ قبيح بين رأسها وكتفيها، الطول الفارغ مثل طول رقبته. أم لعل طول الرقبة ليس فضيلة، ولا علاقة له بالتأني والصبر، كما تفضل الإمام علي، أو لعل الصبر ليس بمفتاح الفرج، كما تفاعل المثل العربي، أو لعل الفرج ليس له مفتاح، كما يظن السيد معروف أحياناً. صبر وصابر، وانتقل من المهدي إلى الكهولة مروراً بسن التفتح وسن الزواج، وسيمر بسن الكهولة الرذيلة. ثم مع السلامة، تفضل، تكفن بالصبر، يا سيد صابر، ونم نومتك الأبدية إلى يوم الحشر، ويوم تبعث حياً. وذوو الميزانيات الضعيفة، هل سيحشرون؟ (...). على أي أحدب أصبح السيد معروف؟ على أي أعرج أو أحول أو أعور أو ميتور الأذنين؟ ابن الرومي من الدرجة الأولى. متسانم يخاف من الدنيا والناس. هذا هو الاتهام القديم الذي كان المرحوم موفق - تصوروا المرحوم الآن! - كان يوجهه له. افتح عينيك، يا سيد معروف، افتح عينيك. لماذا تعلقهما على الغروب الهارب، ولا تلقي نظرة على الأرض التي تسير عليها، على مواقع قدميك؟! اسمع، سيد موفق: لكم دينكم ولي ديني.. من يك ذا بت فهذا بتي، مقيظ، مصيف، مشتي.. من يدري! ربما أبحث عن المن والسلوى تسقط من السماء. مثلما فعل موسى في زمانه. ولست أكثر خيالاً من موسى كليم الله.

وكان السيد معروف، بالفعل، يبحث عن شيء يسقط عليه. وذات مرة، بعد سهرة المقهى، سار في أزقة موحشة، شبه مظلمة. في مثل هذا الجو كان يحلو له التوقيع. وفجأة أحس بشيء يسقط في الظلام.. شيء أبيض ثقيل كالدرة. ركض إليه ورفع. كان كيساً من الورق مكوراً، ضمه تحت إبطه كاللقطعة. وبعد قليل أحس بالليونته تحت إبطه مع خرخشة. وفي الضوء التالي فتح الكيس.. ويا للخيبة! كانت فيه قشور برتقال وبيض. بعد أيام لقيه موفق في المقهى. هل تلقيت هبة السماء؟ لا، لم أتلقها بعد.. قال بجفاء. وقد ظن أنه كان يراقبه. وعلى العموم كان يغيظه أن يلمح موفق دائماً إلى ما في قلبه أو فكره، يعرف مطوى أسرار. كان (موفق) كان ينظر إليه من خلال نور، كما تنظر صورة أشعة. وكان يرد على (لماذا؟) المتكررة على لسان السيد معروف رداً جسوراً يقلب فيه مقاييس الساعة. وفيما بعد تملك السيد معروف العجب من تفكير العقل البشري، وأراد أن يعرف كيف يعمل هذا العقل، مثل الساعة، أو محرك السيارة، أو أي آلة أخرى، أو بقوانين مختلفة تماماً؟ ولماذا يسير عند هذا الشخص بهذا الاتجاه، وعند شخص آخر باتجاه مختلف، ويدور عند شخص ثالث حول نفسه كالمصراع؟ (...). لماذا كان لموفق أب وأم، وأخ وأخت، بينما وجد نفسه مع أم وأختين؟ مصادفة؟ وما هي المصادفة؟ ولماذا يصادف عكس ما يريد؟ لماذا ينعم شخص بمصادفة حسنة، ويحترق هو بجحيم مصادفة سيئة؟ حظوظ؟ (...). طبعاً، إنه يحمده الله على أنه ليس أعور ولا أعرج ولا أفلج ولا مشقوق الشفتين. ولكن لماذا لم يتم نعمته، ويجعل رقبته معتدلة مثل رقاب الناس، وليس بهذا الطول القبيح غير النافع؟ ولماذا لا يحق لأحد أن يعترض ويحتج على ما دون له؟ تفضل، اعترض، تمرد. ولكن ما فائدة التمرد؟ هذا السيد المتنبئ تمرد، وهجا ووقي وأبي وعتا على من عتا، ورأى في ملوك الأرض أرناب مفتحة عيونهم نيام. ولكنه اضطر في آخر حياته إلى أن يحارب عصابة، وقتل بيد أحد أقارب من هجاه ذات مرة. فكيف بالفقير إلى رحمة ربه السيد معروف عامر الدواليبي المشتق لقيه من دولاب الهواء؟ لا، يا سيد موفق، لا أريد. فانا لست من الذين شقت بطونهم، ونظفت بطست من الذهب، وملئت إيماناً وحكمة، بل من السواد الأعظم ممن لم تشق بطونهم إلا لإجراء عملية جراحية مستعصية.. مع أنني بحاجة شديدة لشق بطني، وتنظيف معدتي من القروح الملتهبة. ولكن أين ذلك الجراح النطاسي؟ يفعل ذلك مجاناً ولوجه الله. يدخل في النار التي في معدتي، ويخرج الجمرات التي في جوفها. مثلما فعلت أنت، يا موفق، في حادثة الحريق في بيت عمار، وأخرجت أولاده، وحصلت على مدالية فوق حاجبك، أثر من لفع النار. وقتها أولت تأويلات شتي، ككل شيء في الوجود.

ومن ذا الذي يدري بما فيه من جهل؟ وأنا أيضاً لم أكن أدري بما في من جهل. وانجرفت مع تأويلات أمي، في قضية الأخت الوديعة. وخفت خوفها، وتفجعت تفجعها. سياسي؟ لا، لا، خطر. بلا مستقبل. السياسة آفة

مهلكة، ورطة وبيلة. ولهذا السبب رفضت، خفت على أختك من الترميل على الأقل، وكأنها أول أرملة في الإسلام. ولم يكن يهكم أن تترمل أخرى، ت، بأطفال أربعة أو خمسة. اسكت، مجرم، حقير، حشرة، جربوع. كلنا، يا أستاذ مدير عام، من قوم متهمين بأكل اليرابيع. واليربوع، كما يقول لسان العرب، دويبة تشبه الفأر، إلا أن السيد الجاحظ يعده من حشرات الأرض. يده أقصر من رجليه. بعضهم يصفه بالحيلة، والبعض الآخر بالمسكنة. ولكن الاصطياد والقتل حاصلان، ولا أحد من أئمة اللغة العربية ينكره، بل إن رواية العرب المغفور له الجاحظ يروي عنه أشعاراً لطيفة:

وشاخص العجب ذليل الصدر
أطيب عندي من جني التمر
وكل جبار بعيد الذكر
أو جعل صلي صلاة العصر .

يا رب يربوع قصير الظهر
في العسر إن كان وبعد العسر
وشحمة الأرض طعام المثرى
أكله غير الحرابي الخضر

بقي أن أذكر، إنصافاً للتاريخ، أن الأعراب، كما يقول الجاحظ، لم تكن تتصيده في أول الليل، لأنها تعدّه من مطايا الجن، ولكنه في عصرنا الحاضر الذي لا يؤمن بنظرية الجن والإنس، يصاد في كل الأوقات، أثناء الليل، وأطراف النهار. تفضل، صيده، قدر ما تشاء، ومتى، ما تشاء، وأينما تشاء. وأنا، الجربوع، لا أخشي أن أؤكل، أو هذا ما أقوله بيني وبين نفسي، ولو كنت أسف على ذلك، بصريح العبارة. وأخشي ما أخشاه، ولا سيما في الوقت الحاضر، أن أحيا غير حميد، وأموت غير فقيد.. يعني كالجربوع. وأنا في ذلك أشترك مع السيد المنتبى، طيب الله ثراه، الذي كان مقامه بأرض نخلة، كمقام المسيح بين اليهود، فقد منتبياً. مع أنه، كالسيد موفق رحمه الله، كان عوذ الجاني وغوث الطريد. ومن يدري؟! فقد يكون من أمة تداركها الله غريباً. كصالح في ثمود. إلا أن القتل حاصل على أي حال، في النعمانية أو على شاطئ النهر، في ليلة قمرية أو ظلماء، وحتى في وضح النهار، أو رانعة النهار، ولا تقل رابعة النهار. ومن يدري؟! عندما كان يتحدث عن معنى إبليس، كان أحد الأبالسة يشحذ له سكيناً، أو مسدساً، ويترصده. والمنايا رصداً للفتي حيث سلك! ولكنك، يا سيد معروف، هيأت الفرصة للفتك به. عندما كنت تقول لا تفكير، وأنا إنسان يعيش بلا تفكير، كان هناك من يفكر في القتل، وينوي عليه. والنية، يا سيد معروف، موجودة، ولا يوجد إنسان بلا نية. ولكن الاختلاف في النيات. وهناك نيات غاية في الشر، تجعل الإنسان يؤمن بقول الحجاج. أمنا والله، إنني لأحتمل الشر بحمله، أو أأذوه بنعله.. أوه، كم لك من أفكار جهنمية، يا سيد معروف، وتقول ليس عندي أفكار.. هذه الأمثلة التي تستشهد بها، أليست أفكاراً، يا سيد تراث أفندي؟ شاة الأعمش التي كنت تحلم بها، وتود أن تكون لك، ألا تتطلب فقيهاً أعمش يسر لها فقهه؟ تنكر؟ تنكر التاريخ؟ نعم، أنكره.. يعني عندك أفكار ضده؟ تكلم، انطق. والسيد الجاحظ وعظ بالكلام وقال: صار الكلام أفضل من الصمت، لأن نفع الصمت لا يكاد يعود الصامت، ونفع الكلام يعم القائل والسامع، والحاضر والغائب، والراهن والغابر. ولهذا صار من المتكلمين. تكلم، يا سيد معروف، تكلم. (...). تساوت لديك الأمور؟ وصارت الأيام كلها كيوم واحد؟ مع أنك تعرف قول السلف الصالح: (من استوي يوماه فهو مغبون، ومن كان يومه خيراً من غده، فهو مفتون، ومن كان غده خيراً من يومه فذلك السعيد المحظوظ). لا، لست سعيداً، يا سيد معروف، لست سعيداً ولا محظوظاً. أنت لا تختلف كثيراً عن ذلك الذي وصفه أحد العلماء بأنه أسوأ الناس حالاً، لأنه قال عند موته: (دخلتها جاهلاً، وأقمت بها حائراً، وأخرجت منها مرغماً)، وهو يقصد الدنيا، الحياة. فهل هان عليك حتى أضعف الإيمان، يا سيد تراث أفندي؟ تنسب أفكارك إلى شيطان يستولي على لسانك؟ تتبرأ منها ساعة تريد. شجاعة فارغة لا نفع فيها مثل طول رقبتك. ولو كنت شجاعاً حقاً، لذهبت الآن إلى أختك محبوبة، واعتذرت لها عن الأذى الذي ألحقته بها من جراء رفضك لزواج كريم.

جأباً صوت مرهونة من وراء الباب:

- معروف، ينادونك؟

- من؟ صاحب البيت؟

- لا.
- الشرطة؟
- لا.
- من يطرق الباب عليّ إذن؟
- شخص لا أعرفه.
- خرج السيد معروف إلى الباب مذهولاً، وكأنه ذهب ليقابل شخصاً بُعث حياً.
- ها، سيد كاظم؟ خير إن شاء الله؟
- قلت لنفسي لا أنام إلا أن أقابله.
- خير؟ لا أستطيع أن أدعوك إلى البيت، للأسف الشديد.
- لا حاجة إلى الإزعاج. دعنا نتمشي. وفي شحوب المساء، كان صوت السيد كاظم يبدو صادراً من دهليز.
- أيُّ يوم حافل كان لك اليوم، يا سيد معروف؟
- حافل، يا سيد كاظم، حافل.
- كنت فيه كالمكوك، من المميز إلى المدير العام.
- نعم، مكوك بين يدين ماهرتين. تدفع اليمين لتستقبل الشمال.
- أرجو ألا يكون قد أفلت منك ما يعكر زمانتنا، إذا لم تكن صداقتنا.
- وهل تتصور أن يفلت مني مثل هذا الشيء؟
- يجوز.. في ساعة الوقوف بين يدي السلطان.
- لا، يا سيد كاظم، لا تقلق من هذه الناحية.
- عندي أولاد، يا سيد معروف، وليس لهم معيل غيري.
- لست معدوم الضمير، يا سيد كاظم. ثم هل لدى شيء لأقول؟
- بخصوص دعوتك إلى الانضمام إلى فرقة الإنشاد. سمعت السر يقلت منك.
- ماذا قلت بالضبط؟ آه، تذكرت! هل أنت من الظرفاء يا سيد كاظم؟
- في هذا الموقف بالذات، أرجو ألا أكون.
- كن على ثقة.
- أنا لا أثق بالمثل القائل.. (دار السيد مأمونة).

- ولا أنا.

تأفف السيد كاظم، وصمت طويلاً كأنه لا يعرف كيف يواصل الحديث، أو كأن مخاوف أخرى شديدة تنازع نفسه. ثم قال بتهيب:

- هل لي أن أعرف ماذا تحدثت مع المدير العام مثلاً؟

- يمكنك.

وصمت السيد معروف طويلاً، على العادة، في المواقف التي تقال فيها كلمات حاسمة، وأردف بعد ذلك:

- تحدثنا عن التاريخ.

- التاريخ؟

- نعم، عن التاريخ، هل لك تاريخ يا سيد كاظم؟

- تاريخي هو تاريخ استلام الراتب كل شهر.

- أما أنا فأنكرت التاريخ كله.

- أنكرت التاريخ؟

- أنكرت أن يكون التاريخ هو تاريخ البشر، كما قال سيادة المدير، فلو كان التاريخ تاريخ البشر لكان تاريخي أيضاً. ألسنت من البشر؟

- هوى هوى هوى. اسمح لي، يا سيد معروف، أنت تورط نفسك في أشياء أنت في غنى عنها.

- ربما. ولكن هل أنت في غنى عن أن تُعدَّ نفسك من البشر؟ تلك نعمة من نعم الباري، يا سيد كاظم، أم أنك تؤمن بالقائل: (لعل الله فضلكم علينا بشيء، أن أمكم شريم)؟

- لا أعرف. ولكنك ستندم، يا سيد معروف، ستندم.

- لا أظن، يا سيد كاظم. ولو قدّر لي أن أقابل المدير العام مرة واحدة، وجري الحديث على نفس الموضوع لقلت نفس الكلام، بل ولصرخت في وجهه: (لو كان التاريخ هو تاريخ البشر حقاً لكان تاريخي، (وأضفت) وتاريخ نسبي الذي قتل قبل يومين)

[حزيران، 0891]

